محمود السعدني

مسافر بلا متاع



دار الشروق

مسافر بلا متاع

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠١٠/٩٣٢٧

ISBN 978-977-09-2843-7

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)

email: dar@shorouk. com

www. shorouk. com

محمود السعدني

مسافر بلا متاع

دار الشروق

المحتويات

مقدمة

الأدب والحياة

بقلم: رجاء النقاش

هناك كثيرون من الكتاب والأدباء يعيشون حياتهم العادية، ثم عندما يريدون أن يكتبوا فإنهم ينفصلون عن الحياة ويعتكفون من أجل الكتابة. محمود السعدني لا يفعل ذلك أبدًا.

إنه يكتب وهو يعيش. فليس أدبه نابعًا من الحياة كما يقال.. إنه الحياة نفسها، تلك الحياة التي عاشها السعدني واكتوى بنارها ولم يعرف فيها الهدوء والعزلة أو الأبواب المغلقة والنوافذ المسدودة، فالحياة عند السعدني لا فرق فيها بين البيت والغيط أو بين العمل والعلاقات الإنسانية المختلفة.. وهذه الحياة تشبه النهر المتدفق، فيه الماء والطمي والأعشاب والأسماك والحصى.

وعندما تلتقي بالسعدني فإنك تجد حوله مجموعة من الأصدقاء القريبين إليه بنفس الدرجة وبينهم الفلاح والعامل وحامل الدكتوراه

والفنان اللامع والقهوجي والصحفي الناشئ ولـواء الشرطة والمقاول وشيخ المسجد والمصلي فيه وقارئ القرآن والرسام، والذي يطلب عونًا والذي يمنح العون. أشكال وألوان من البشر، في ذلك الصندوق العجيب الذي يشبه صندوق الدنيا والذي كنا نسميه في طفولتنا باسم صندوق العجب، وهو الاسم الصحيح بغير تعديل ولا تحريف.

السعدني يكتب وهو غارق في حياته، إنه يكتب ويعيش في نفس اللحظة، والكتابة والحياة عنده لهما نفس المعنى، فارتباط الكتابة بالحياة ظاهرة أساسية في كتابة السعدني تليها ظاهرة ثانية.. لقد أمسك الفقر برقاب الكثيرين من الشخصيات التي كتب عنها محمود السعدني، هؤلاء الذين يعيشون على هامش المجتمع، لا يعترف بهم أحد وليس لهم بعد مكان في واقع المجتمع.. هذا الفقر تحول في كتابات السعدني إلى نوع من الأدب الغنائي الجميل. فقد اكتشف السعدني بموهبته وعمق تجربته تلك الجوانب الإيجابية التي يكتشفها أذكياء الفقراء ويفترضون وجودها في فقرهم حتى يتمكنوا من احتماله إلى أن يشاء الله، ومن هذه الإيجابيات ما كان الفقر يعطيه للإنسان من حرية الحركة بدون قيود أو التزامات. ومن إحساس شديد الرحابة بامتلاك الزمان والمكان، فهم يمتلكون الشوارع وشاطئ النهر وأطراف الصحراء والحقول المزروعة والأرض الجرداء، وكانوا يمتلكون الزمان كله فيلتقون في منتصف الليل أو عز الظهيرة، ومما ساعد محمود السعدني على أن يكتشف الجوانب الإيجابية في حياة الفقراء ويصورها في سخرية غنائية

جميلة ويلتقط منها صورًا حية مؤثرة أن السعدني كان قد استطاع الإفلات منذ البداية من الفقر الساحق الذي لا يتيح لصاحبه أن يلتقط أنفاسه واستطاع مع مجموعة من الأصدقاء مثل عبد الحميد قطامش وزكريا الحجاوي أن يصبحوا من كبار الفقراء وأعيانهم وعلية القوم فيهم، وقد أتاح له هذا الأمر العجيب ما يتمتع به إلى جانب موهبته الأدبية من صفات أخرى هي جزء لا يتجزأ من شخصية السعدني، وعلى رأس هذه الصفات أنه أحد الساخرين اللامعين، بل إنه أكثر الساخرين في جيلنا شمولًا وخصوبة.

صحيح أن محمد عفيفي ـ رحمه الله ـ كان ساخرًا عظيمًا جدًّا ونـادرًا كل الندرة عندما كان يمسك بقلمه، ولكن محمد عفيفي كان وديعًا في حياته وسلوكه مثل العصافير، بل كان مليئًا بالخجل والحياء والرغبة في الانسحاب من المجتمع، أما السعدني فهو ساخر «مسلح» أي أنه مليء بالجرأة والجسارة والقدرة على الاقتحام، ويكفي أن يظهر السعدني على مسرح جلسة من الجلسات مهما كان فيها ممن قد يكونون كبارًا في الثروة والمركز أو الوضع الاجتماعي حتى تتحرك الكهرباء التي في السعدني فتزيل الفوارق بينه وبين الآخرين وتسقط الحواجز، ثم تنفتح الأبواب المغلقة والنفوس المتحفظة وتخرج أسرار الناس المختبئة في أعماقهم إلى الضوء والنور.

وهكذا أتيح للسعدني أن يعرف الكثير من أسرار المجتمع بمن فيه من الميسورين والفقراء على السواء، مما أعطاه تلك المادة

الإنسانية الغزيرة في كتاباته، ويجب ألا ننسى بعد ذلك كله ما للمكان من أهمية بالغة عند السعدني.. فارتباطه الوجداني بالمكان يكاد يكون سرًّا من أسرار كتاباته وشخصيته وحياته، وهو من هذه الناحية ـ ناحية الالتصاق بالمكان ـ يعتبر من مدرسة نجيب محفوظ. فنجيب قد ظل في حياته كلها وأدبه كله يرفرف بوجدانه حول منطقة الحسين الشعبية بشوارعها وحواريها الضيقة وملامحها الإنسانية الخاصة، حتى أصبحت هذه المنطقة الشعبية هي الواقع والرمز معًا في أدبه، فالعالم عند نجيب محفوظ هو الحارة، والقوة عنده ـ في هذه الدنيا ـ تتمثل في الفتوات، والجمال الأنثوي في معظم رواياته هو الجمال الذي تمثله بنت البلد الشعبية في خان الخليلي وزقاق المدق، والحرافيش في هذه البيئة هم أبناء المجتمع وهم أيضًا رمز للجنس البشري كله.. إن خيال نجيب محفوظ ووجدانه وعاطفته ورؤيته لمشاكل المجتمع ومشاكل الإنسانية قد ارتبطت جميعًا بهذه البيئة الشعبية التي لم تفارق خياله قط، ولم يستطع أن يبتعد عنها في يوم من الأيام.

السعدني من هذه المدرسة، فهو أيضًا مرتبط بالمكان ويشعر دائمًا أن هذا المكان هو المجتمع وهو الحياة، ومهما ابتعد عن هذا المكان بجسمه فهو متشبث به عن طريق وجدانه وعقله. وهو لا يحس بمعنى للحياة خارج هذا المكان.. والمكان عند السعدني هو الجيزة بحواريها وأزقتها الضيقة وأبنائها الذين يعيشون فيها هم وأهلهم، جيلًا بعد جيل. ولذلك فإن لغة السعدني من شدة تأثره بالمكان الذي عاش فيه وكان على الدوام عاشقًا له ولم يستطع

أن ينفصل عنه حتى لو كان في أقصى الأرض.. لغة السعدني ابن الجيزة لها صوت مسموع، فكأنك وأنت تقرأ له تسمعه في نفس الوقت وهو يتكلم ويقفز من بين الكلمات والعبارات والسطور. إن الأصول الجيزاوية الشعبية عند السعدني قوية جدًّا وهي المسيطرة على موهبته وأسلوبه وتصويره لكل تجارب الحياة ونماذجها المختلفة.

ولو وضعت السعدني في لندن أو نيويورك أو باريس لسنوات طويلة فإنه لن يرى في هذه المدن إلا ما عرفه في الجيزة أو عن الجيزة، وهذا الموقف عند السعدني يذكرني بأشعار بيرم التونسي التي قالها عندما هرب في بور سعيد من السفينة التي كانت تحمله من دمشق إلى فرنسا ليواصل حياته في المنفى:

وأقول لكم بالصراحة اللي في زمانا قليلة
عشرين سنة في السياحة وأشوف مناظر جميلة
ما شفت يا قلبي راحة في دي السنين الطويلة
إلا ما شفت البراقع واللبدة والجلابية

رجاء النقاش

مسافر بلا متاع

في يوم ٢٣ ديسمبر عام ١٩٨٢ ركبت الطائرة المصرية من الشارقة إلى القاهرة، ولم يكن معي متاع على الإطلاق سوى حقيبة سامسونايت صغيرة بها أجندة تليفونات وبعض الأوراق ودوسيه يضم بعض المقالات التي كنت أزمع إصدارها في كتاب، ولم أكن قد رأيت القاهرة منذ مائة شهر، مارست خلالها لعبة دوخيني يا لمونة.. من القاهرة إلى لندن ومن لندن إلى الإمارات ومن الإمارات إلى بيروت ومن بيروت إلى ليبيا التي مكثت بها عشرين يومًا ومن ليبيا إلى مالطة ومن مالطة إلى لندن ومن لندن إلى الإمارات من جديد، ومكثت هناك ثمانية أشهر ثم اضطرتني ظروف معينة إلى الرحيل إلى الكويت ومكثت في الكويت ستة أشهر، ثم اضطرتني ظروف قاسية للسفر إلى العراق حيث مكثت هناك مع أسرتي لمدة ست سنوات استأجرت منزلًا لأسرتي في بغداد وألحقت أولادي بالجامعة.. وعدت من جديد إلى لندن حيث أصدرت إحدى المجلات هناك وأصبحت مثل الخواجا

كيسنجر أقوم برحلات مكوكية من لندن إلى بغداد وبالعكس. ثم تركت بغداد في العام ١٩٨١ مع ابني أكرم وسافرت إلى الشارقة، ومكثت في الشارقة حتى حدث حادث المنصة، وبقيت هناك حتى عدت إلى بغداد مرة أخرى حيث قمت بتسفير أسرتي إلى القاهرة وذهبت أنا إلى الشارقة، ومن هناك ركبت الطائرة المصرية إلى القاهرة. عندما انفتح باب الطائرة على أرض المطار وجدت أسفل السلم ثلاثة أشخاص في انتظاري: اللواء فؤاد علام من مباحث أمن الدولة مندوبًا عن وزير الداخلية حسن أبو باشا وشقيقي الممثل الكبير صلاح السعدني وابنه أحمد السعدني وكان في الرابعة من عمره، ولم يكن قد سبق له رؤيتي من قبل، وكان تعليقه الوحيد حين رآني: إيه دي يا بابا عمو من غير راس، وكان يقصد أنني أصلع ومن غير شعر، وتناول اللواء فؤاد علام جواز سفري وأعطاه لأحد رجال البوليس لكي ينهي الإجراءات، واصطحبني في سيارة مع صلاح وابنه، ووجدت نفسي خارج المطار. لقد أصبحت أخيرًا في مصر.

استفتاء شعبي

يا ألف مرحب بمصر وبناسها وبأرضها وبهوائها وشمسها، وبكل حفنة تراب فيها، وعلى الرصيف استأذن اللواء فؤاد علام ومضى إلى حال سبيله. وصحبني صلاح السعدني في سيارته وراح يشق طريقه في شوارع المدينة التي تغيرت كثيرًا بعد هذه الغيبة الطويلة ولكن على رأي شارلز ديكنز.. من أنا الذي يعيب

على المدينة أنها تغيرت وقد عدت إليها أنا نفسي وقد غيرت مني الأيام. هأنذا بلا رأس على رأي الولد الشقي ابن صلاح وبلا عمل لأني مفصول بقرار جمهوري باطل ولا أمل في أي عمل آخر لأنني ممنوع من العمل في أي فرع من فروع الإعلام بمقتضى استفتاء اشترك فيه الشعب المصري كله وجرى بإشراف وزير الداخلية النشيط السيد النبوي إسماعيل. وقد وافق الشعب المصري كله بنسبة ٩٩,٩٩٩ على عدم اشتغال أمثالي من المتهمين في قضية مراكز القوى في أي مجال من مجالات الإعلام. استفتاء شعبي لا يمكن تجاهله أو تجاوزه أو القفز عليه. ماذا يخبئ القدر للعبد لله؟ وما الذي تخفيه الأيام القادمة؟ شعرت بأسف شديد وخوف من المستقبل، وتصورت أني جئت قبل موعدي، ولكن ظني كان خاطئًا، ومخاوفي كانت على غير أساس، وبعد ثلاثة أيام من عودتي إلى القاهرة، كنت أجلس مع الرئيس حسني مبارك في حديقة منزله، واكتشفت خلال اللقاء أن الرئيس حسني مبارك ليس من النوع الذي يحاسب الناس على ما في أدمغتهم ولا يحاسبهم على مواقف سابقة، ولكن الحساب عنده يبدأ من أول وجديد. أغلقت الملفات القديمة وتم فتح ملفات جديدة، والحساب على أساس الانتماء الوطني والالتزام بالقيم والأخلاق، ولا خلاف إذا اختلفت معه في السياسة، ما دام الاختلاف بالقلم أو باللسان، الأمر الوحيد المحظور أن تستخدم السلاح في النقاش أو تستخدم القنابل في الحوار أو تكون المطواة قرن الغزال هي وسيلتك في الإقناع. بعد ذلك كل شيء مسموح به وكل شيء مباح. وبعد أيام قليلة من

مقابلتي لحسني مبارك كنت جالسًا خلف مكتبي في روزاليوسف، نفس المكان الذي كنت أعمل فيه قبل المحاكمة والسجن والهجرة للخارج. واختلفت مع القيادة القديمة لروزاليوسف فآثرت الابتعاد ونشر مقالاتي على صفحات المصور بلا أجر منذ بدأت وحتى الآن مكتفيًا بمرتبي من روزاليوسف. وعارضت الحكومة كثيرًا واختلفت مع الحزب الوطني، وهاجمت وزراء ومحافظين ومسئولين كبارًا، واختلفت مع كامب ديفيد واتفاقية السلام ولم يستوقفني أحد ولم يلفت نظري أحد. وكنت ألتقي بالرئيس مبارك في مناسبات كثيرة ولم أجد منه إلا كل الود والترحاب. وامتد نشاطي إلى الأهرام الرياضي مع إبراهيم حجازي، وإلى مجلة الشباب مع عبد الوهاب مطاوع، وإلى أخبار اليوم مع إبراهيم سعدة، وامتد نشاطي إلى الوطن العربي، فنشرت في البيان في دولة الإمارات وفي الشرق الأوسط في لندن وبعدها في صوت الكويت في لندن أيضًا.

العائلة كلها

وبالرغم من الاستفتاء المشهور إياه الذي منعني من الاشتغال في أي مجال إعلامي، فقد أصبحت الآن عضوًا بالمجلس الأعلى للصحافة، ولعل السيد النبوي إسماعيل سيشعر بالضيق الآن، لأن الاستفتاء الذي أشرف على تنفيذه بكفاءة منقطعة النظير قد دفعني إلى أعلى بدلًا من دفني في التراب، وابني أكرم يعمل صحفيًّا في روزاليوسف، وابنتي هالة تعمل مذيعة في التليفزيون المصري،

وهبة تعمل في مؤسسة الأهرام، وحفيدي محمود أكرم السعدني وعمره خمس سنوات يتدرب الآن ليعمل محررًا في الأهرام وربما في الأخبار وربما في مجلة آخر ساعة وهو أضعف الإيمان.

هل كان يمكن أن يحدث هذا في ظل رئيس آخر غير حسني مبارك في مصر. اليوم لا توجد نية مبيتة للإيقاع بك ولا توجد فخاخ منصوبة على الطريق للإمساك بك، أشعر شعورًا حقيقيًّا الآن أن أسعد سنوات حياتي بدأت سنة ١٩٨٣ واستمرت حتى الآن. وبالرغم من اختلافي مع الحزب الوطني ومهاجمتي لكثير من سياسات الحزب وانتقادي الشديد لها، إلا أنني في الوقت نفسه صديق للدكتور يوسف والي الأمين العام للحزب الوطني، ولبلدياتي كمال الشاذلي. وبالرغم من هجومي المتكرر على الحكومة واختلافي معها بشأن بعض الممارسات، إلا أنني صديق رئيس الحكومة. وبالرغم من هجومي الشديد على أجهزة الإعلام إلا أنني أعتبر نفسي من أصدقاء صفوت الشريف. وبالرغم من ملاحظاتي على أداء الإدارة المحلية وبعض رموزها الذين تورطوا في أمور لا تليق، أجد نفسي صديقًا حقيقيًّا للدكتور عبد الرحيم شحاتة محافظ القاهرة والسيد عبد السلام محجوب محافظ الإسكندرية والسيد أحمد عبد الغفار محافظ الغربية، ولكل الشرفاء والذين يعملون بكفاءة وإخلاص من كبار رجال الدولة في كل موقع، أما خلافي مع الآخرين فقد كان لصالح الوطن وليس من أجل هبرة كدبرة على رأي فؤاد المهندس!

صوتي له

والآن وبالرغم من اختلافي مع الحكومة ومعارضتي للحزب الوطني ودخولي في معارك مع الأرزقية والمتربحين، إلا أنني سأعطي صوتي للرئيس حسني مبارك عندما يحين الوقت لتجديد رئاسته لمصر لفترة أخرى. الرئيس الذي لا يتعقب أحدًا من رعاياه ولا يتربص له ولا يختلق الأسباب للإيقاع به، الرجل الذي أشعر أنني لن أدخل السجن في ظله إلا إذا ارتكبت جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد، أو ارتكبت جريمة سطو على خزائن البنك الأهلي، ولما كانت صحة العبد لله لا تساعده على ارتكاب أفعال من هذا النوع، فأنا ضامن أني لن أدخل السجن مهما عارضته أو اختلفت معه طالما كان الخلاف في حدود اجتهاد من أجل مصلحة الوطن ومستقبله، فهذه مسألة غير محظورة ولا جناح على من يرتكبها من المواطنين. إنه نهج جديد وأسلوب مختلف، وهذا الأسلوب هو انعكاس لشخصية حسني مبارك، فهو لا يحقد ولا يغتاظ وليس من النوع الذي يجز على أسنانه، ولأنه طيار مقاتل ليلي، فأعصابه دائمًا في ثلاجة، ولأنه رياضي فمزاجه دائمًا معتدل، إنه لا يشخط ولا ينظر ولا يصرخ في الفاضية وفي المليانة، وهو لا يحب المفاجآت ولا الصدمات الكهربائية ولكن كل إجراء بحساب وكل خطوة بقدر.

عمنا حسني مبارك.. أنا لست عضوًا في حزبك، ولست وزيرًا في

حكومتك، أنا مجرد كاتب على باب الله أمنحك صوتي المتواضع في الاستفتاء القادم وفي كل استفتاء قادم، أعطيك صوتي وأشكرك لأني أنا المستفيد لوجودك على رأس الدولة، فأنت الضمانة الوحيدة لكي نضمن العيش بهدوء حتى نهاية العمر. جعل الله أيامك كلها سعادة وطمأنينة وأمن.. لك ولنا ولجميع المصريين.

آمين يا رب العالمين!

لا جريدة ولا مجلة

في بداية حياتي الصحفية أكرمني المولى العزيز بالجلوس في حجرة واحدة مع العبقري الخالد بيرم التونسي، وكان بيرم التونسي في نظر جيلنا أسطورة من الأساطير. كان كاتبًا ساخرًا وشاخرًا أيضًا، أصدر أكثر من عشرين جريدة وصحيفة، ولكن سلطات الاحتلال وقفت له بالمرصاد فطاردته على طول الخط وصادرت جميع المجلات والجرائد التي أصدرها، وكان القانون وقتئذ يحتم على كل صاحب جريدة أو مجلة الحصول على ترخيص قبل الصدور.

وقد حاول بيرم عدة مرات الحصول على هذا الترخيص دون جدوى، ولكن هذا الموقف الرسمي لم يصرفه عن تحقيق هدفه فأصدر مطبوعة باسم المسلة وكتب تحتها عبارة: لا جريدة ولا مجلة. ولما كانت لا جريدة ولا مجلة فهي لا تحتاج إلى أي ترخيص من أي نوع. ولأن عمنا بيرم كان شعبيًّا وبسيطًا فقد توطدت الصلة بيني وبينه، وكان في لحظات صفوه يحكي للعبد لله عن معاناته في

المنفى وعن دوخة يني التي تعرض لها في الغربة. النصيحة الوحيدة التي أسداها للعبد لله: أن أهجر الأسلوب الساخر الذي أكتب به وأوصاني باتباع الأسلوب الحنجوري بحيث تحمل المقالة عدة أوجه.. تقرؤها فتتصور أنها هجاء ويقرؤها غيرك فيتصور أنها مديح، كلام من نوع الشواشي العليا للبرجوازية والشفق المذهق على قفا الأفق، كما يكتب السادة الحناجرة، أو كلام على طريقة السادة السناكحة، نسبة إلى سنكوح بن مزاحم الذي كان واليًا على ديوان الإنشاء للقائد أبرهة، وكان عليه أن يكتب الرسائل والفرمانات بلغة يفهمها جميع البشر من روم ومن عرب وعجم وفرس وزنوج، فكان يكتب في رسالته شيئًا من شندبار يلوح في السواهيلي ويكشف عن رجل ملم نشطل مكارف مظروم على خوشبي أمديد زغتي!

النمر الجريح

وقال لي عمنا بيرم التونسي: إذا التزمت بهذا الأسلوب الساخر خلال حياتك الصحفية، فستكون حياتك في مهب الريح وأيامك أسود من الزيتون المدهون بالورنيش، ولياليك يا صاحبي أزرق من الهدوم المصبوغة بالنيلة.

لأنه لا يغيظ المسئول إلا أن تتناوله بأسلوب ساخر يهتك ستره ويكشف حقيقته ويمزق الثوب الكاذب الذي يحرص على أن يظهر به أمام رؤسائه، لأن المسئول عادة ما يكون مثلنا.. غلبان

وتعبان ومهزوم في داخله، ولكنه يحرص دائمًا على الظهور وهو في مكتبه العاجي، سواء كان محافظًا أو وزيرًا أو رئيس مجلس إدارة في صورة تخالف حقيقته، فيتعمد أن يعوج رقبته أو أن ينفخ أوداجه، فإذا سخرت منه فقد نكأت جراحه، واللعب في الجروح يستفز ويهيج صاحبها ويجعل منه وحشًا يتصرف كالنمر الجريح!

لعب عيال

ولكن العبد لله لم يستمع ـ لسوء الحظ ـ إلى نصيحة عمنا بيرم التونسي، وأشهد أنني كتبت سطورًا ساخرة تجرح وتدمي في الوقت نفسه ولم يعترض طريقي أحد. وتناولت شخصيات رسمية كبيرة في حجم وقامة زعماء ورؤساء وزارات، ونشرت سطوري على صفحات مجلة ـ كلمة ونص ـ التي كان يرأس تحريرها الفنان مأمون الشناوي، ولم يتحرك ضدي أحد، ربما لأنني كنت صغير السن ومجهول الاسم، وربما اعتبروا سطوري لعب عيال أو شيطنة صبيان، ولكني أخطأت الحساب مرة فتناولت رجلًا عظيمًا بكلمات ساخرة. وكان هذا الرجل هو الشيخ مصطفى إسماعيل. وكانت هذه أول دعوى تنظرها المحاكم ضد العبد لله. وهي مسألة غريبة لأنني كنت أعشق مصطفى إسماعيل وأتبعه في كل مكان يذهب إليه. ولكن النكتة حبكت مع العبد لله فكتبت في نهاية المقال أقول: والشيخ مصطفى إسماعيل يدخن السجاير.. ويشرب الكازوزة

و.. هل أقول..؟ لا.. فأنت من عشاق الشيخ مصطفى إسماعيل. ثم علمت بعد ذلك أن الشيخ لا علاقة له بالدعوى المرفوعة أمام المحاكم ولكنه اجتهاد أحد المحامين النشيطين. وقد تم سحب الدعوى بإشارة من الشيخ نفسه!

الملابس الرسمية

وسخرت جدًّا من وزراء في عهد عبد الناصر، أشهرهم أنور سلامة وزير العمل بخصوص البدلة الشعبية، والمهندس عبد الخالق الشناوي وزير الري بخصوص الحفل الذي أقامه بخصوص الانتهاء من مشروع هام. وجاء في بطاقة الدعوة التي وزعها على المدعوين وأنا منهم ضرورة الحضور بالملابس الرسمية. بالنسبة للوزير أنور سلامة انتقدت مسلكه عندما ظهر على شاشة التليفزيون يدعو للبدلة الشعبية بينما كان يرتدي بدلة موهير وقميص نيتو وكرافتة أرجانس وشراب بحربة ولا حربة مقاتل في أحراش كاتنجا. وبالنسبة لحفل المهندس وزير الري تساءلت على صفحات مجلة صباح الخير.. ما هي الملابس الرسمية في نظر الوزير المهندس؟ هل نحضر بالجلابية السكروتة؟ أم بالبيجامة والجاكتة الصوف؟ أم يمكننا الحضور بالفانلة واللباس؟

والحق أقول إن وزير العمل ووزير الري وهو مهندس عالمي بكل تأكيد تحملا سخرية العبد لله واعتبراها من باب الدعابة والنقد المباح.

السجن لمن؟

ولكن.. وبالرغم من القهر الأزلي والعذاب الأبدي.. هل أفضل للكاتب الصحفي أن يعيش عيشة موظف الأرشيف؟ أم يعيش على سن القلم كما يعيش المقاتل على حد السيف؟ هل أفضل للكاتب الصحفي أن يكون مثل بيرم التونسي؟ أم الأفضل أن يعيش عيشة بيرم التونسي؟ العبد لله يتمنى أن يعيش عيشة بيرم التونسي، وأن أحظى بشرف خدمته في كل مكان ولو كان في تخشيبة قسم الخليفة! ولذلك.. العبد لله ينصح الولد الساحر الناشئ أنور وجدي أن يعود إلى سابق عهده ويتحفنا بلدغاته ضد المسئولين وأشباه المسئولين. وقسمًا عظمًا أن أقف إلى جانبه في كل الأحوال. ونذرًا على العبد لله أن أتحفك كل أسبوع بعلبتين سجاير وورقة لحمة وسلطانية طرشي، سواء كنت في سجن الأوردي أو في سجن المرج. وزمان كان السجن للجدعان، وغدًا سيكون السجن للصحفيين!

طويل العمر

العبد لله كان قصير النظر وأعمى بصيرة بعيد عنكم. تصورت في شبابي أن الصحة مستمرة والحالة مستقرة، على وزن الثورة قايمة والكفاح دوَّار. عندما كنت في الخامسة والعشرين كنت إذا تعرفت على رجل في الستين من عمره، قلت بيني وبين نفسي: يا خبر أبيض، لسه عايش لحد دلوقت؟! وإذا رأيت أحدهم يبكي على ميت رحل في السبعين عامًا قلت: يعني بيعيطوا على شبابه. وعندما وصلت إلى الخامسة والثلاثين أصدرت أول جزء من مجموعة «الولد الشقي» وقلت فيه بالحرف الواحد: أتمنى أن أعيش إلى سن السبعين، فأنا أخاف الموت والنوم في المقابر المهجورة وأخشى أن أتحول إلى وجبة لكلب صايع أو كلب جائع.

أحلامي في العمر الطويل لم تتعدَ السبعين عامًا. تصورت لقصر نظري وعمى بصيرتي أن السبعين عامًا هي نهاية الحياة، لم أتصور أن السنين تنهب العمر كما ينهب القطار المجري المسافة بين القاهرة وقليوب.. ها هي السبعون تفتح أحضانها للعبد لله،

وبحلول عام ١٩٩٧ أصبح الشيخ محمود السعدني في السبعين من عمره، وبعد أشهر قليلة أحتفل بعيد ميلادي السبعين.. آية أخرى تثبت قول الشاعر.. والعمر كالطيف أو كالضيف ليس له إقامة، يا قوة الله، سبعون عامًا طويلة عرفت خلالها من صنف البشر ما يفوق عدد عساكر جيش هتلر، ولم يبقَ من المعمورة أرض لم أشاهدها إلا أستراليا وأمريكا اللاتينية، وتذاكر السفر إلى المنطقتين في جيب العبد لله منذ سنين، ومن أحلامي أن يمتد بي العمر حتى أشاهد حيوان الكانجرو في مراعي وغابات أستراليا، وحتى أرقص السامبا والرومبا وأشرب التيكيلا مع أهل الفنون والثورات من المكسيك إلى هندوراس.

تقدم يا روميل

يا لها من أحداث رهيبة وعظيمة وخالدة شهدها العبد لله واشترك فيها. أول ثورة في مصر رأيتها كانت في العام ١٩٣٥ في هبّة الطلبة ضد الاحتلال البريطاني، وسقط ضحيتها عدد من الشهداء أشهرهم عبد الكريم الجراحي رحمة الله عليه ورضوانه. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وازدحمت مصر بجنود من جميع الملل والألوان: إخوان سود من جنوب إفريقيا وحتى السنغال، وعساكر من أوروبا ومن أمريكا، وعمالقة من أستراليا ونيوزلندا، وجنود من آسيا وبلاد تركب الأفيال، ومناظر وأشكال ما أنزل الله بها من سلطان. وأوضاع تصلح مسلسلات تليفزيونية فشر مسلسل

فوزية فراويلا والسحت وعباس بن فرناس، خادمات في البيوت تحولن إلى أرتشت.. يعني أرتست، وخدامين صاروا عمالًا في الأورنس، وحرامية تحولوا إلى متعهدين للجيش الإنجليزي، وناس يتمتعون بالستر تعروا وتدحرجوا إلى القاع، ثروات هبطت على البعض بغتة، وناس من طبقة المبسوطين رأيتهم بعيني رأسي يتسولون طعامهم من المارة ويلتقطون أعقاب السجاير من تحت أقدامهم، ومظاهرات اشتركنا فيها ونحن طلبة في مدرسة المعهد العلمي الثانوية نهتف: تقدم يا روميل تقهقر يا جون بول، ولكن زميلًا لنا في السنة الثالثة الثانوية كان ماركسيًّا خطب فينا ونهانا عن اتخاذ هذا الموقف الفاشي الرجعي، أما الموقف الصحيح في رأيه فهو الوقوف إلى جانب الحلفاء.. مع الحرية والديموقراطية وتقرير المصير.

ويا ليت روميل تقدم وتقهقر جون بول، لأن مصالحنا كعرب كانت إلى جانب هتلر ومصلحة الصهاينة كانت مع الإنجليز، تحالفوا مع الإنجليز وانخرطوا في جيشهم ومن خلال الجيش الإنجليزي تأسس الجيش اليهودي «الهاجاناة» وهو الذي تولى بعد ذلك طرد الفلسطينيين واحتلال أرضهم.

كانت الشيوعية حديثة في مصر.. أقصد التنظيمات إياها، كانت بقيادة اليهود، وانخدع بعض المثقفين المصريين وبعض العمال، فلم يكن الهدف من تأسيس التنظيمات الشيوعية إلا تبرير أطماع اليهود في فلسطين، وهذا الكلام ليس من تأليف العبد لله، ولكنه كلام

أحد أشرف العناصر الماركسية من بين المصريين، وهو المرحوم مصطفى طيبة، وقد غادر دنيانا في العام ١٩٩٦، وقد سجل هذا الكلام في سلسلة كتب، حبذا لو قام الدكتور سمير سرحان بطبعها وعرضها بأسعار في متناول الجميع.

الشهود العدول

ولم يكن مصطفى طيبة هو الشاهد الوحيد، ولكني سمعت الكلام نفسه من مثقف مصري عظيم ومفكر ماركسي له خصوصية ومن أصحاب الوزن الثقيل وهو الأستاذ محمد سيد أحمد، وقال نفس الكلام في سهرة في بيت الصديق عمرو عبد السميع في لندن وضمت معنا أيضًا الدكتور إسماعيل رشدي الوزير المفوض والدكتور مصطفى الفقي سفيرنا في النمسا والوزير المفوض جهاد ماضي نائب مساعد وزير الخارجية، ما علينا.. ولكن ليته تقدم العم روميل، ولو فعل لكفانا شر ما حدث لنا في فلسطين. فالعبد لله من أبناء الجيل الذي سمع أفراده بأذان ونداءات سائقي سيارات الأجرة في ميدان العتبة: نفر واحد غزة، نفر واحد القدس، نفر واحد بيروت، نفر واحد حلب. وكان من عادة بعض المصريين قضاء العيد في يافا أو في بيروت. وأذكر أنني قمت بتوديع «سعيد أبو بكر» مرة في محطة مصر وهو في طريقه إلى القدس بالقطار، ومرة أخرى فعلت نفس الشيء مع عبد الرحمن الخميسي وهو في طريقه إلى تل أبيب حيث كان يعمل في محطة الشرق الأدنى التي

تبث من حيفا. ما علينا.. مرة أخرى فيا ليت عمنا روميل تقدم، فربما عشنا زمنًا رغدًا أيام شبابنا.

نهاية الثوار

وبعد الحرب العالمية الثانية جاءت حرب فلسطين، وكانت الحكومة قد ألغت البدل المادي وفرضت التجنيد على الجميع. ولكنهم جندونا ثم سرحونا «تحت الطلب» ولكن هذا الطلب لم يحن وقته حتى اليوم، ثم جاءت حرب التحرير التي أعلنها النحاس باشا ضد قوات الاحتلال البريطاني في منطقة القناة. وهذه المعركة بالذات هي التي صدمتني وأنضجتني وفتحت عيني على أوضاع مصر المقلوبة، وتناقضاتها الغريبة، وهي التي فرضت الحل الجذري بثورة ٢٣ يوليو، فلم يكن من السهل إنقاذ مصر من محنتها مع وجود الملك فاروق الزين أبو وردة على الخدين جاثمًا على أنفاس المصريين، وفي الثورة شفنا العجب وعشنا أمجادها ونكساتها، وشاركنا في انتصاراتها وعشنا هزائمها، ولكن بالرغم من اختلاف البعض حولها فقد كانت ضرورية لمصر، وبدونها كانت مصر ستصبح بالتأكيد غير التي نعرفها الآن، ونفس الكلام ينطبق على العالم العربي. وخلال ثورة يوليو تعرفت على معظم ملوك وأمراء وزعماء وثوار العالم العربي، حياة كل منهم تصلح مادة لكتاب كبير. وما أكثر الثوار الذين فشلوا وماتوا قتلى برصاص الثوار زملائهم ودفنوا في مقابر مجهولة بعيدًا عن أرض الوطن،

الثائر محمد خيضر أشرف وأنقى من أفرزتهم ثورة الجزائر قُتل ودُفن في مدريد. والثائر الشريف صالح بن يوسف التونسي الذي قتل ودفن في ألمانيا. والثائر الشاعر صلاح البيطار قتل ودفن في باريس. والثائر العظيم المهدي بن بركة الذي قتل ودفن في قبر مجهول في فرنسا. والثائر التونسي إبراهيم طوبال الذي مات مخمورًا ودفن في الجزائر. والثائر أكرم الحوراني الذي مات في المنفى ولا أعرف أين دفن.

أمنية العبد لله

ولو سألتني الآن ما أحب الألقاب إلى قلبك لأجبتك: لقب طويل العمر. فما أسعد الإنسان الذي تطول أيامه على الأرض بشرط أن تكون الصحة على ما يرام. والله يرحمه ويحسن إليه الراحل عمنا محمد عبد الوهاب، وأسأل الله أن يطيل في عمر نجيب محفوظ وأنيس منصور وعلي الراعي، وألف رحمة على روح عمنا مصطفى أمين وعمنا فتحي غانم وروح عمنا سعد وهبة، ويطيل في عمر عمنا الكبير محمد حسنين هيكل ومحمد عودة وأمين العالم ويوسف جوهر وعبد القادر القط ومحمود عبد المنعم مراد. إلى آخر أعضاء حزب ما بعد السبعين. ولو عشت سأكتب لكم كتابًا من عدة أجزاء عن الولد الشقي في السياسة عن الرجال الذين أحبوا الوطن فأدى بهم حبهم إلى الهلاك، وعن الذين اشتغلوا بأخطر مهنة في العالم العربي، وهي مهنة السياسة والتشرد والعذاب.

وتسألونني عن أمنية العبد لله الحقيقية، أقول لكم: أن أعيش سبعين سنة أخرى.. ومن يدري؟ ربما عندما يأتي الوقت قد أطلب السبعين سنة الثالثة. ومين عارف يحصل إيه عندما تنتهي الفترة الثالثة.

ادعوا للعبد لله بطول العمر مع الصحة التمام!

حكومة.. وعكومة

القضاء هو أعظم تاج ترتديه الشعوب والأمم. والعدل هو الجسر الوحيد المؤدي إلى الاستقرار والرخاء والتنمية. ولا يمكن بناء نهضة حقيقية على ظلم. وأكبر دليل على ذلك هو تجربة ألمانيا الهتلرية، فقد حققت ألمانيا في سنوات قليلة ما عجزت دول كبيرة عن تحقيقه في أجيال كثيرة. ولكن كل ما حوله الألمان من معجزات تحول إلى أنقاض في شهور.

ومصر والحمد لله تتمتع بقضاء شامخ وعادل وعظيم. وآخر القضاة العظام الذين وقفت أمام منصتهم العالية للأسف الشديد أنستني الشيخوخة اسمه، وكان رئيسًا لإحدى دوائر الجنايات بالإسكندرية. أصدر حكمه على العبد لله بالبراءة، بعد سلسلة من الجلسات العاصفة استغرقت عامين كاملين. وقبل ذلك بعشر سنوات وقفت أمام دائرة جنايات بالقاهرة برئاسة المستشار زكريا حذيفة، وجاء حكم المحكمة إدانة صريحة لمؤسسة السينما الحكومية التي أقامت الدعوى ضد العبد لله.

وكان حكم البراءة للعبد لله إشادة لموقفي الصحفي ضد السادة المتربحين والمرتشين وبتوع التلات ورقات!

حادث بسيط

وقد أتيح للعبد لله فرصة الاحتكاك بالقضاء الإنجليزي أثناء إقامتي في لندن في حقبة السبعينيات. في تلك الأيام انخبط العبد لله في عقله فامتلكت سيارة صغيرة وتوليت قيادتها بنفسي. وكان مع العبد لله أكثر من رخصة قيادة تسمح للعبد لله بالقيادة في بلاد الإنجليز واحدة من دولة الإمارات وأخرى من الكويت والثالثة دولية. وذات يوم ممطر كثير الضباب صدمت بنت غندورة على خط المشاة، وهي جناية في نظر القانون البريطاني. ولكن لأن الله عالم بأحوال الغلابة لم يسفر الحادث إلا عن خدوش بسيطة، وأدى التفاهم مع البنت الخواجاية ببعض الهدايا والإكراميات إلى خروج العبد لله من هذا المأزق بخسائر طفيفة. المهم أنني أثناء نظر قضيتي أمام محكمة بريطانية في وسط العاصمة البريطانية، استمتعت بمشاهدة تفاصيل مجموعة من القضايا أغلبها مخالفات مرورية وبعض جرائم السرقات الصغيرة.

حرامي ولكن

القضية التي هزت أعماقي كانت خاصة بفتى أسود في القفص يرتدي ملابس رخيصة وقذرة، ولكنه لم يكن خائفًا ولا مذعورًا.

نظر إليه القاضي من خلال نظارته السميكة وقال وكأنه يتحدث مع نفسه: تاني. ورد الولد الأسود قائلًا: معذور يا سيدي. وقال القاضي متهكمًا: أي عذر، لقد قبضوا عليك خارج المحل والمسروقات معك. رد الولد الأسود ببساطة: لقد كنت على موعد في اليوم التالي للذهاب إلى إحدى الشركات لمقابلة أحد المسئولين هناك تمهيدًا لإلحاقي بوظيفة عامل أسانسير. قال القاضي: وما علاقة هذا الأمر بالسرقة؟ رد الولد الأسود: لقد كان قميصي متسخًا وممزقًا، فأردت سرقة قميص نظيف يساعدني على استلام الوظيفة. هز القاضي رأسه وقال: ولكنك سرقت قميصين وليس قميصًا واحدًا. رد الولد الأسود على الفور: لقد سرقت كيسًا واحدًا ولكن الكيس كان يحتوي على قميصين. ولم يكن هذا قراري ولكن نظام الشركة الذي لا دخل لي فيه. ولزم القاضي الصمت ثم قال بعد فترة قصيرة: حظك لا بأس به وعذرك مقبول، وسأحكم عليك بالحبس لمدة شهر مع إيقاف التنفيذ لمدة عشرين شهرًا، ولكني سأضعك في السجن لمدة طويلة لو رأيت وجهك هنا خلال العشرين شهرًا القادمة، وسأحكم أيضًا بتسليمك الكيس الذي سرقته لكي تستخدمه في الحصول على عمل تكسب منه عيشك، ولكن لا تنتظر مني رأفة ولا رحمة إذا وقع بصري عليك هنا خلال العشرين شهرًا القادمة. وكانت مفاجأة شديدة للعبد لله عندما صفق الذين في القاعة للقاضي الإنجليزي. فقد كنت أتصور أن الإنجليز يتمتعون ببرود يمنعهم من التصفيق في أي موقف!

هذا هو المهم

ووقفت في القفص عندما حان الوقت لنظر قضيتي. سألني القاضي: هل أنت بريطاني؟ أجبته بالنفي. فقال: هل لديك رخصة قيادة بريطانية؟ أجبته بالنفي. قال: وكيف تقود سيارة بدون رخصة؟ قلت: عندي رخصة قيادة بديلة هي رخصة قيادة من دولة الإمارات والقانون يسمح بذلك. وقدمت الرخصة للحاجب الذي سلمها للقاضي، وطلب القاضي أحد المترجمين وسلمه الرخصة وقال له: هل هي سليمة؟ نظر المترجم إلى الرخصة وقال للقاضي: التاريخ قديم. وقال القاضي: التواريخ غير مهمة، هل هي رخصة حقيقية؟ صادرة من الشرطة في دولة الإمـارات؟ أجابه المترجم: نعم يا سيدي. قال القاضي: حسنًا.. وبعد أن نظر في تقرير المستشفى حكم بأربع نقط على رخصة العبد لله، وفي بريطانيا قانون يعطي للقاضي الحق في وضع بعض النقط على رخصة المخالف، وتسحب الرخصة لمدة عام أو عامين إذا وصل عدد النقط إلى ١٢ نقطة على ما أعتقد!

وهناك فرق

ولكن الذي لفت نظري في القضية كلها هو تعليقه على ملاحظة المترجم بأن الرخصة قديمة قائلًا التواريخ غير مهمة، المهم هل الرخصة حقيقية؟ هل هي صادرة من شرطة دولة الإمارات؟ وإذا

كانت الرخصة حقيقية وغير مزيفة، فهي دليل على أن صاحبها استعملها عن جدارة. وإذا كان القانون البريطاني عامل رخصة الإمارات بقيادة السيارة في بريطانيا. فمعناها أن العبد لله من حقه أن يقود سيارته في شوارع لندن هذا هو المهم، أما عدا ذلك فهو شكليات لا تستحق الوقوف عندها.

أعتقد أننا في حاجة إلى إلقاء نظرة على مختلف أوجه حياتنا لإزالة كل الشكليات التي تعوق نمونا وتقف حجر عثرة في طريقنا وتفتح المجال أمام السادة المستوظفين لفك عقدهم وفك أزماتهم وحشو بطون البعض منهم بالمال الحرام.

وهذا هو الفرق بين الحكومة والعكومة. الحكومة هي التي تزيح كل العقبات من طريق المواطنين. والعكومة هي التي تسد الطريق وتحكم الحصار وتضيق الخناق على المواطنين. وكم في شرقنا السعيد من عكومات من الوزن الثقيل!

لعبة غزالي

وكما في دنيا الدول، سلوك البشر لا يختلف عن سلوك الممالك والجمهوريات. هل رأى أحدكم خناقة حامية بين سيدة في الزمالك وبين جيرانها من الجنس اللطيف؟

هل شاهدتم معركة يشيب لهولها الغراب بين الهوانم في شوارع جاردن سيتي؟ ولكن هذه مألوفة وعادية في شوارع بولاق الدكرور وعزبة القرود وخوخة السعدان.. الناس الفقراء يتشاجرون لأهون الأسباب، وغالبًا بدون أسباب. الشجار يتحول عندهم إلى نوع من الترفيه ومحاولة من جانبهم لكسر رتابة ورخامة الحياة. وزمان في الجيزة كانت ست الكل سايحة إذا مر عليها أسبوع بدون خناق ذهبت إلى المستشفى لتتعرف على السبب الذي جعلها تعزف عن ممارسة فنها الذي هو بالنسبة لها زينة الحياة الدنيا، ربما قبل المال والبنين، وربما أفضل من البغال والحمير لتركبوها وزينة فهي أيضًا زينة مثل المال والبنين والخناق. وكانت زنوبة ونحن صبية صغار عندما تشعر بالضيق تخلع ملابسها وتدب خناقة مع

مواطن غلبان في الشارع. وبعد الخناقة كانت تجلس على الرصيف منشرحة ومنشكحة تشفط من كوب الشاي الذي أرسله لها المعلم أمين صاحب القهوة مكافأة لها على ما أبدته من شجاعة في ميدان القتال!

الإفطار وأسبرين

وكما كان يحدث بين صابحة ونايحة في ميدان الجيزة يحدث هذه الأيام بين أثيوبيا وأريتريا. في ميدان القتال العساكر على الجانبين ملابسهم مهلهلة وهي ليست ملابس بالمعنى المعروف للكلمة ولكنها هلاهيل وهدوم غير مغسولة من بالة وارد بلجيكا، والأحذية أجارك الله البوز مقطوع والجوانب مخبوطة والرباط أكلته الرطوبة، ومياه الأمطار والحرب على أشدها، مع أن العساكر في الغالب لم يتناولوا أي إفطار على الإطلاق، والمدفع الماكينة مختبئ داخل عشة لا تصلح حتى لسكنى الفراخ، هي غالبًا ما تستعمل مأوى للثعابين والحيات، حكمة الله أن الناس مش لاقية تهرش في أريتريا وأثيوبيا، ولكن الحكومتين لديهما طائرات هليوكوبتر وطائرات مجنحة حديثة الطراز. نفس الشيء يحدث في سيريلانكا بين الحكومة ونمور التاميل، والقتال داير في الأحراش وبأحدث الأسلحة، والناس تفطر إسبرين وتتعشى بمحلول الجفاف. ونفس المحنة شغالة على قدم وساق في أنجولا وفي زائير وفي سيراليون بين الجنرال كباح والجنرال سنكوح. ولا أعرف كيف حصل الأخ

سنكوح على رتبة الجنرال. ويبدو أنه حصل عليها بطريقة زميلي في سجن القناطر الكرداسي الذي لقبوه بسيادة اللواء. حتى بالنسبة لمأمور السجن نظمي الجاولي نفسه، بعد أن أقسم الكرداسي أنه لن يرد على أحد إلا إذا ناداه باسمه مسبوقًا بسيادة اللواء!

العراك للترفيه

يبدو أن القتال هو وسيلة الغلابة لكسر روتين الحياة اللزج البليد الثقيل، ويبدو أنها نظرية حقيقية، لأننا لم نشاهد في حياتنا معارك من هذا النوع بين أمريكا وكندا أو بين بريطانيا ودول اسكندنافيا أو بين فرنسا وسويسرا أو بين ألمانيا وهولندا. قد يقول أخونا أبو العريف: لقد وقعت معارك بين هؤلاء في الحرب العالمية الثانية وقبل ذلك في الحرب العالمية الأولى. وأقول للسيد أبو العريف: نعم هذا صحيح، الحرب العالمية الثانية كانت نتيجة جنون انتاب الكرة الأرضية، ولكن العبد لله يتكلم عن ظروف أخرى ليست فيها حرب أو ضرب وليس هناك سبب لذلك كهذه الحرب في القرن الإفريقي. فلماذا؟ وما هي الأسباب؟ لقد كانت أثيوبيا وأريتريا منذ عدة سنوات بلدًا واحدًا وشعبًا واحدًا، والرئيس أفورقي الأريتري والرئيس زيناوي الأثيوبي من قبيلة نيجراي وهما أولاد خالة، يعني زيتنا في دقيقنا والبيت جنب الغيط. والعنصران المتحاربان بسيريلانكا يؤمنان بدين واحد ويعبدان إلهًا واحدًا. وهي مواصفات تنطبق أيضًا على القبائل المتحاربة في أنجولا وفي سيراليون وفي زائير.

هذا هو السؤال

ولذلك.. فالسؤال.. ما سبب الحرب على هذه الجبهات؟ ويبدو أنها لعبة لقطع أوقات الفراغ. أذكر ونحن صبية وقفنا في الشارع في شبه دائرة واقترح أحدنا أن نذهب إلى السينما، ولكن الفلوس التي كانت في جيوبنا لم تكن كافية لدخول السينما، فاقترح أحدنا الجلوس على القهوة وشرب الشاي ولعب الطاولة، ولكن الفلوس لم تكن كافية. فاقترح آخر الذهاب إلى محل عم صبحي الحلواني لنأكل الكنافة والبغاشة، ولكن الفلوس لم تكن تكفي لأي شيء. وفجأة هتف أحدنا وهو المرحوم جمال غزالي واقترح اقتراحًا وجيهًا للغاية سرعان ما نفذناه على الفور. هل تعرفون ماذا اقترح غزالي؟ قال بلهجة عالم خبير بوسائل حل المشاكل: يللا نتخانق مع العساكر الهنادوة دول، وكان بعض العساكر الهنادوة يمرون في ميدان الجيزة في نفس الوقت، ونشبت المعركة على الفور ولم يتدخل أحد لوقف القتال، واستمرت المعركة وقتًا طويلاً. وهكذا أمضينا سهرة طيبة بدون تكاليف كأرخص ليالي بتاعة المرحوم يوسف إدريس.

لعبة غزالي

ولكن.. شوف خيبة الأمل لما تركب جمل، خناقة حامية مثل حرب البسوس بين شوية طلبة فقراء وليس معهم فلوس وبين شوية

عساكر هنادوة أغلب من الغلب. ترى لو كانوا عساكر إنجليز أو أمريكان، هل كانوا استجابوا لقتالنا؟ العبد لله يشك في ذلك، فقد كان مع هذا الصنف من العساكر فلوس وحلويات وزجاجات خمور وكانوا في طريقهم إلى ملاهي الرقص في شارع الهرم. ولكن مثل هذه الخناقات لا تدور إلا بين شلة غزالي والعساكر الهنود أو بين جنرال كباح وجنرال سنكوح أو بين أثيوبيا وأريتريا، وهي يمكن أن تنشب في أي مكان حيث لا فلوس ولا إمكانيات ولا شيء يسر القلب على الإطلاق، بحيث تصبح الحرب أو الخناقة عملية ترفيهية ومحاولة لكسر رتابة الحياة وروتينها اللزج الثقيل. إنها لعبة الغزالي انتشرت الآن في كل مكان. وعندما تصبح الحرب هي المتعة الوحيدة في حياة بعض الناس، فهو الدليل الوحيد على وجود حاجة غلط في حياة هؤلاء الناس، وهي حالة سائدة الآن في مواقع عديدة على خريطة الكرة الأرضية. فحيث الفقر الشديد والغم الأزلي تنشب هذه الحروب التي لا تحمل أي معنى وليس لها أي هدف على الإطلاق.

غارات الفرفشة

أذكر أنني عندما كنت أقضي فترة العقوبة في سجن القناطر كان الحاج صبحي الشرقاوي هو زعيم العنبر (أ)، وكان بين الحين والآخر يقوم بغارات على العنبر (ب)، وأحيانًا كان يكتفي بشن غارات على دور (٣) أو دور (٤)، وعبثًا حاولت أن أفهم سر هذه الغارات دون

جدوى، وذات يوم وأثناء شروع الحاج صبحي في الهجوم على عنبر (ب)، سألت الحاج صبحي عن سر هذا الهجوم وعن الذنب الذي ارتكبه نزلاء عنبر (ب) ويستحقون عليه العقاب.

فأجابني ببساطة: هيعملوا إيه ما عملوش حاجة هما لاقيين يهرشوا. ولما قلت للحاج صبحي.. طيب وهتضربوهم ليه مش كفاية اللي همَّ فيه؟ رمقني الحاج صبحي بنظرة نارية وقال: وإنت رأيك إيه.. نقعد جنب الحيط زي الولايا. نقعد نعد الثواني والدقائق طول النهار؟ أهي حاجة للفرفشة وتنسينا اللي احنا فيه.

وعندما تتحول الحرب عند البعض إلى وسيلة للفرفشة والمزاج، يصبح بطن الأرض خيرًا لهم من ظهرها!

وتكلم السيف..!

وعلى طريقة الأهلي والزمالك انعقد في القاهرة مؤخرًا مؤتمران، مؤتمر أطلقوا عليه اسم مؤتمر التطبيع حضرته بعض الوفود من بينها وفد إسرائيلي رفيع المستوى. ومؤتمر آخر أطلق عليه مؤتمر عدم التطبيع. ولا أعرف معنى عدم التطبيع إلا إذا كان شيء كده مثل عدم الموافقة. ولكن لأن عدم التطبيع حلو، فقد انعقد من أجله مؤتمران، مؤتمر دعت إليه إحدى الدور الصحفية والمؤتمر الثاني دعا إليه ضياء الدين داود القطب الناصري الكبير ورئيس الحزب الناصري العربي الديموقراطي ورئيس مجلس إدارة جريدة العربي. وهذا المؤتمر هو الذي دعيت لحضوره ولكني رفضت حضوره، ولم أعتذر عن ذلك، لإيماني بأن مؤتمرًا لعدم التطبيع، أو لمناهضة التطبيع، أو لمقاومة التطبيع، هو أمر يدخل في باب الهزل. لأن الواقع يقول كيف نمنع الناس من التطبيع؟ إذا كانوا هم أنفسهم قد قرروا ذلك، وكيف نجبرهم على التطبيع؟ إذا كانوا هم أنفسهم قرروا عدم ارتكاب هذا الذنب العظيم. ومؤتمر بهذا الاسم ومن

أجل هذه المهمة هو مجرد مناسبة للكلام والهلضمة واستعراض عضلات الحنجرة. وخد عندك كلام من نوع الحنجوري المتشابك مع الشنجوري المتشنكح مع التيار المتواطئ المتنازل الزاحف على بطنه.. إلى آخر هذه العبارات الهجايص التي شربنا منها حتى ارتوينا وأكلنا منها حتى شبعنا، وكانت النتيجة أننا صرنا كالمنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى!

إنجاز سُكيتي

وخد عندك إسرائيل مثلًا، هبرت أرض فلسطين والتهمت هضبة الجولان وأكلت حتة كبيرة من لبنان دون أن توجه دعوة لأي أحد لحضور مؤتمر الاحتلال أو مؤتمر عدم الاحتلال، إسرائيل تنجز في هدوء وفي صمت وسُكيتي.. على رأي فؤاد المهندس. وانظر إلى إسرائيل الآن ستجد زعماءهم هم جنرالاتهم، رئيس الوزراء هو باراك رئيس أركان حرب جيش الدفاع. وزعيم المعارضة هو شارون قائد الجيش السمين في حجم الفتوة جعلص يرحمه الله. أما نحن فزعماؤنا هم خطباؤنا. كان سعد زغلول خطيبًا لا يشق له غبار، وكان مصطفى كامل يغني وهو يخطب، وعرابي لم يكن قائد الثورة العرابية ولكن زعيمها الحقيقي كان عبد الله النديم الكاتب الشاعر الساخر الثائر الشاخر حتى الآن. استمع إلى الدكتور فتحي سرور سيذكرك بالزعيم سعد زغلول، وخد بالك من عمك كمال الشاذلي سيذكرك بعمك عبد الله النديم،

كلام حلو وصوت قوي وتشويح بالذراع وضرب على المنضدة بقبضة اليد.

بدون وينجز

واقرأ تاريخ عمك محمد علي، ستكتشف أنه أنجز بدون وينجز. نظم الري وأسس الجيش وأنشأ الطبقة العاملة المصرية. نعم محمد علي هو الذي أنشأ الطبقة العاملة.. كيف؟ هل كان يحب العمال ويعطف عليهم؟ الجواب لا بالطبع. ولكنه كان يحب مصر ويعشقها. كما كان رجل دولة من طراز عظيم. عندما شرع محمد علي في إنشاء جيش ودعا شباب مصر إلى الانخراط في صفوفه، اللائقون طبيًّا ينضمون لصفوف الجيش والأسطول وغير اللائقين طبيًّا يجري تجنيدهم كعمال يصنعون بارودًا وبنادق للجيش ويصنعون ملابس وأحذية للجنود. فإذا انتهت مدة التجنيد الإجباري أبقاهم محمد علي في الخدمة كأسطوات ينظمون العمل ويعلمون المستجدين من المجندين. وهكذا أشرق فجر الحركة العمالية في مصر والفضل لمحمد علي الكبير. وتستطيع أن تقرأ القصة كاملة في كتاب الخبير العمالي الأستاذ أمين عز الدين.

جهاد على طول

لم يحضر محمد علي مؤتمرًا ولم يخطب باللاوندي كمجاهدي هذه الأيام ولم يكن قد ظهر في عصره هذا الاختراع

العجيب.. اختراع الحنجوري المتعانق مع الفجر البازغ عند حلول السرنديب. ولعل هذا هو السبب الذي جعلني أرفض حضور مؤتمر عدم التطبيع الذي دعا إليه المجاهد ضياء الدين داود، وهو مجاهد باعتباره يجاهد صباح مساء وعمال على بطال، ولثقتي بأن مؤتمر سيادته لن يمنع أحدًا من التطبيع ولن يغري أحدًا بالتطبيع، ولكنه مؤتمر للتصوير وللتجعير.. نسبة للجاعورة. وفلسطين نفسها ضاعت بسبب مؤتمرات من هذا النوع. وفي العام ١٩٤٨ حضرت مؤتمرًا من هذا النوع في فندق شبرد خطب فيه أمين الجامعة العربية وقتئذ وقال وصوته يتدفق حماسًا: سكت القلم فتكلم أيها السيف.. وسكت القلم بالفعل وتكلم السيف، سيف الإسلام عبد الله، وكان أميرًا يمنيًّا يرحمه الله.

موحدة وأبدية

انتهى الخواجا باراك من تأليف وزارتـه، وهي وزارة حلوة ودمها خفيف وبنت ناس، كما أنها جمعت الشامي على المغربي والمتطرف على المتساهل والنتن ياهو على النتن يا خلق.. وباراك نفسه لم يعد بشيء ولم يفصح عن نواياه. الشيء الوحيد الذي تعهد به هو تنفيذ اتفاق واي ريفر وهو الاتفاق الذي رفض نتنياهو تنفيذه، على أساس أن واي ريفر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه يا أولي الألباب. ولكنه في الوقت نفسه أكد أن القدس عاصمة أبدية وموحدة لإسرائيل. أما المستوطنات فلم يتعرض لها من قريب أو

من بعيد. والعبد لله يعتقد أن القدس لا يمكن تحريرها إلا بقوة السلاح وسيحدث هذا بإذن واحد أحد ذات يوم في القرن الواحد والعشرين بإذن الله. عندما يعود العرب عربًا وتصبح السكة العربية سالكة والحدود العربية مفتوحة للعرب وليس كما هو الحال الآن مسدودة أمام العرب مفتوحة للغير!

ع الهيجا

وأغرب شيء بالنسبة لعرب اليوم أن جميع الإذاعات العربية تصرخ صباح مساء بأناشيد الوحدة اللي ما يغلبها غلاب، وحنا للسيف حنا للضيف وع الهيجا هيا يا رجال.. والعبد لله لا يعرف أي هيجا يقصدون. لأن الهيجا ممكن تكون الحرب وممكن أيضًا تكون أي حاجة ثانية. وأوروبا التي تتعامل بألف صنف من العملة وتتكلم بمائة لسان ونصفها يؤمن بالله والنصف الآخر يؤمن بالشلن وبالفرنك وبالمارك ويجمعهم في النهاية إله واحد هو الدولار. أوروبا هذه اتحدت أولًا عن طريق العملة والبضائع والتجارة والمصالح، ولم نسمع في أوروبا كلها أغنية واحدة عن الوحدة أو حتى عن الاتحاد. ولكن هنا في بلادنا استمعنا إلى مائة ألف أغنية، وأنا واقف فوق الأهرام وقدامي بساتين الشام، والوحدة هي طريقي والعربي هو رفيقي أنا قادم من بليدة وهدفي هو بريدة، وبليدة في الجزائر وبريدة في السعودية، وعلى طول الطريق ما أكثر المهالك والمزالق والفخاخ!

الفضل لبسيوني

ولكن القدس ستعود يومًا ما بإذن الله ليس بفضل سماحة باراك ولا جهود أنصار السلام الآن ولا ببركة عمنا السفير صلاح بسيوني، ولكنها ستعود بفضل ذو الفقار سيف سيدنا علي بن أبي طالب، وبفضل البتار سيف عمنا سعد بن أبي وقاص. ولكن البداية هي أن نشعر بعروبتنا ونشعر بأن حياتنا في وحدتنا وأنه من الضروري أن نتعلق ببعض لا أن نتعلق فرادى، وعندما تتحد هويتنا وتتحد إرادتنا، عندما يقوم العربي من باب المندب في اليمن إلى باب الواد في المغرب دون أن يستوقفه أحد أو يفتشه أحد أو تمتد يد أحد لتلزقه على قفاه، عندئذ ستعود القدس وتعود عكا وستعود أم الرشراش التي حكم الزمن عليها فأصبحت إيلات!

ضغط الدم

صحيح قليل البخت يلقى العظم في الكرشة. وهذا المثل ينطبق على العبد لله لسوء الحظ. في البداية أعترف لكم بأنني مصاب بضغط الدم العالي. وذات يوم منذ سنوات دخلت عيادة الدكتور فايز بطرس بهارلي ستريت في لندن، أشكو له من عدم قدرتي على النوم، وأني أنام نومًا متقطعًا وعلى فترات كل فترة لا تزيد على ساعتين. ونظر الدكتور فايز بطرس طويلًا إلى وجهي وقال للعبد لله: استلق على هذا السرير كي أقيس لك ضغطك. وقلت للطبيب: اطمئن فأنا لا أعاني من أي ضغط دم لا عالي ولا واطي، وضغط دمي منذ العشرينيات من العمر وحتى الستينيات هو ١٢٠ على ٨٠ يعني ضغط شاب في مقتبل العمر. ورد الدكتور على العبد لله وهو منهمك في إعداد جهاز الضغط: ولكنك الآن في السبعين وهي مرحلة تختلف عما مضى من العمر.. واستسلمت للدكتور فايز وأعطيته ذراعي وقام بقياس الضغط، ونظرت إليه ولكنه تجاهل نظراتي وانهمك في قياس الضغط مرة ثانية ومرة ثالثة ومرة رابعة،

ثم أعاد الجهاز إلى جرابه وسألني: هل تعاني من صداع شديد هذه الأيام؟ نفيت له أنني أعاني من أي صداع ثم سألني: هل هناك «وش» في أذنيك؟ قلت: لا يوجد أي «وش» على الإطلاق. قال: ضغطك ٢٢٠ على ١٦٠ وهو أمر مخيف وينذر بالخطر. قلت: وما العمل؟ قال: لن نفعل أي شيء الآن، سأتركك أسبوعًا لتعود إليَّ في نفس الموعد الأسبوع القادم، فلعل هذا الارتفاع عصبي ومفاجئ وسيزول بعد وقت. وقلت له: ولكنك قلت إنني في مرحلة الخطر. قال: هذا صحيح ولذلك أنصحك بالراحة هذا الأسبوع وبعدم أكل الطرشي والابتعاد عن الملح وعدم الدخول في مشاحنات من أي نوع، وأنصحك بضبط النفس، لا تغضب ولا تثر لأي سبب من الأسباب.

هايص ولايص

ومر الأسبوع سريعًا وعدت من جديد إلى الدكتور فايز بطرس وقرأت على وجهه الرقم الذي سجله الجهاز أقصد جهاز الضغط. قلت للدكتور: خير؟ قال: سأعطيك دواء الضغط الآن وعليك أن تواظب عليه وأي إهمال في تناوله سيؤدي إلى عواقب وخيمة، وكتب لي ثلاثة أنواع من الدواء: واحد في الصباح ٥٠ ملجم، وواحد في المساء ١٠ ملجم، وواحد في الظهيرة يتكفل بطرد الماء من الجسم. ومضى أسبوع آخر وذهبت للدكتور وبشرني بأن النتيجة طيبة وأن الدواء أعاد الضغط إلى منسوبه الطبيعي وأوصاني

بشراء جهاز لقياس الضغط لكي أقوم بالقياس في المنزل. وعشت مريضًا بالضغط، أتلاءم معه أحيانًا وأتلاءم عليه في بعض الأحيان. ولكن الضغط كان بين الحين والآخر يتغلب على الدواء، ويفلت من جميع التحصينات التي أقمتها حوله ويرتفع فجأة ليصل إلى مرحلة الخطر. ودربت نفسي على ريجيم لترويض الضغط. ولكني لاحظت أن الضغط يرتفع فجأة وبشكل جنوني بالرغم من الدواء والريجيم، ومرة بعد مرة لاحظت أن الضغط يصيبه الجنون كلما قرأت أخبار النصابين في الجرائد. نصابين من الوزن الثقيل: نصاب يلهف مئات الملايين من البنوك ثم يفر هاربًا إلى الخارج. ونصاب يلهف من المنبع كما تفعل الضرائب، أي يلهف من الناس مباشرة مثل زعماء شركات توظيف الأموال، ثم فص ملح وداب. وبعضهم وبعضهن يلهف المعلوم ويضعه في صرة ويا فكيك على الخارج. بعضهم يعيش في لندن في ثياب بزنس مان، وبعضهم يعيش في اليونان، وبعضهم يعيش في باريس، آخر حفلات وآخر سهرات بينما الشعب صاحب المال يعاني ويتعذب وكأن ما يحدث أمامنا فصل من مسرحية «أخويا هايص وأنا لايص» للمؤلف عبد الرحمن شوقي يرحمه الله!

طعمية وكافيار

ولا أخفي عليكم أن العبد لله متغاظ ومفروس من هذا الوضع الظالم الذي يسمح لهابر الأموال بالإقامة في شقة فاخرة في حي

«بيكر ستريت» في لندن وعلى الباب تنتظره السيارة الفاخرة مع السائق والعشاء كافيار مع الأصدقاء في أفخم مطاعم «الماي فير»، والصورة الثانية على رصيف بالجيزة المعلم قطب جالس على شاطئ النهر يحتضن رغيفًا به عدة أقراص طعمية وفكره شارد في تحويشة العمر التي نشلها منه رجل الأعمال الهارب في لندن. مأساة نتيجتها ضغط الدم العالي الذي يهدد بفرقعة في المخ أو بفرقعة في القلب!

فرحة ما تمت

لعل ذلك هو الذي جعلني أصرخ من شدة الفرح عندما قرأت خبرًا في الصحف عن تبرع أحد رجال الأعمال المصريين بمبلغ ١٠٠ مليون دولار لجامعة المنصورة لبناء ثلاثة مستشفيات لعلاج المواطنين وتدريب وتخريج الأطباء. يا إلهي.. الدنيا لا تزال بخير والناس لا تزال بخير ومصر لا تزال بخير. شعرت بعد قراءة الخبر في الجريدة، ولم تكن جريدة واحدة التي نشرت الخبر، ولكن ثلاث جرائد كبرى.. الأهرام والأخبار والوفد. وقلت لنفسي: هذا الخبر صحيح بدون شك «ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» وشعرت أن الضغط عاد إلى حاله الطبيعي ١٢٠ على ٨٠، وفكرت أن أنهض وأرقص وأفتح النافذة وأغني، ولكني تراجعت عن تنفيذ هذه الفكرة خوفًا من الجيران. وقلت لابد من تحية هذا الرجل العظيم وإلقاء الضوء على موقفه الوطني العظيم، وأمسكت

بالقلم وكتبت مقالًا عن الرجل الكريم الدكتور سمير شحاتة هندي أو هنري.. الله وحده يعلم الحقيقة، وعبرت في السطور التي كتبتها عن مدى الاحترام الذي أشعر به نحو الرجل، ومدي حاجتنا نحن المصريين لنماذج من هذا النوع العظيم من المصريين المغتربين. ولكن فرحة ما تمت خدها الغراب وطار. بعد ظهور أخبار اليوم بساعات انهالت التليفونات على العبد لله كلها تلومني وتشد أذني على رأي عم كامل الشناوي لأنني تسرعت وأن المتبرع إياه لم يتبرع بشيء حتى الآن ولن يتبرع بشيء في المستقبل. والبعض الآخر قال إن الثري الأمثل الذي كتبت عنه ليس ثريًّا ولا أمثل ولم يسافر إلى أمريكا إلا منذ عام ونصف. قلت في نفسي لعل أصحاب هذه التليفونات في خصام مع الرجل أو في عداء معه، حتى قرأت في الزميلة روزاليوسف موضوعًا بقلم الأستاذة كريمة سويدان يحمل نفس المعاني التي سمعتها في المكالمات التليفونية. وقلت في نفسي كما قال أبو العلاء المعري في نفسه: يا ليت شعري ما الصحيح؟ وقلت لو صحت هذه المعلومات وأن الشخص نفسه متبرع ما تبرعش بحاجة على وزن شاهد ماشفش حاجة. ولكن من ألوم؟ واحد غاوي منجهة وفشخرة فأعلن عن تبرعه بـ ١٠٠ مليون دولار، فأعلنت الجامعة على الفور قبولها التبرع، ونشرت الصحف الخبر على الفور، وكتبت أنا مقال التمجيد على الفور. فمن الذي ألوم؟ وما العمل؟ ويبدو أن العمل الوحيد هو عودة العبد لله إلى عيادة الدكتور فايز بطرس في لندن!

هذا هو السؤال

والسؤال الذي ينتظر جوابًا هو: لماذا انتشرت عمليات النصب في مصر هذه الأيام؟ وهل مصر وحدها هي التي تشهد حوادث نصب فريدة وغريبة من نوعها؟ إن مصر ليست وحدها التي تشهد هذا الطوفان من حركات النصب، فالنصب على ودنه في كل مكان. ولكن النصب في بعض الأماكن يعامل بشدة ويجري قمعه بيد من حديد، ولذلك يفكر النصاب ألف مرة قبل أن يقوم بنصبة جديدة. لكن تمسكنا بسيادة القانون يشجع النصاب عندنا على القيام بالنصب بقلب من حديد، وعلى أساس أن النصبة إذا طابت فيادي النعيم، وإذا خابت فعلقة تفوت ولا حد يموت. هل تذكرون حادثة المواطن الذي كتب شيكًا للحكومة بمبلغ مليار جنيه، وهو مبلغ يغطي ديون الريان، ثم اكتشفت الحكومة أن الرجل على باب الله وأنه لا يملك أي رصيد في البنك. ولكن ما الذي حدث للمواطن بعد ذلك؟ قضى في الحبس عدة أشهر قليلة ثم خرج مشهورًا مسرورًا ولا نجم السينما محمود عبد العزيز!

الحديد والملوخية

وطبعًا كلكم تتذكرون قصة رجل الأعمال الدولي رئيس مجلس إدارة حديد أسوان وشريكه العضو المنتدب. ناس على باب الله أحوالهم المالية الخالق الناطق طبق الأصل من أحوال

العبد لله. لا هم من رجال الأعمال ولا هم من رجال البنوك، ومع ذلك لم يترددوا في إنشاء المشروع وكانوا يخططون لاقتراض ٨٠٠ مليون جنيه من بنك مصري. تصوروا؟! مع أن الديون لو كانت من فئة المائة جنيه فقط لا غير فهي هم بالليل وذل بالنهار. ولكن هذا النوع من الناس لا خوف ولا خشا، ولكنهم من فصيلة المنشار.. طالع واكل نازل واكل، وأضافوا إلى المعادلة إضافة جديدة.. واقف واكل.. فالمهم هو الأكل واللهط والهبر والقضم. أما الحساب فهو هين ومحتمل وهو يسير. عدة أشهر في السجن، ثم يخرج إلى الحياة ليختار مكانًا آخر لينشئ فيه مصنعًا آخر.. ربما مصنع ألومنيوم أو مصنع ورق أو مصنع ملوخية. ومرة تصيب ومرة تخيب. والقانون مثل مجلس الأمن لا يحفظ حقوق السذج ولا يحمي المغفلين!

الطفل الثائر

صحيح يثاب المرء رغم أنفه. فالعبد لله ومنذ فترة طويلة وأنا أشكو لله ضعفي وجهلي وهواني على الناس، لأنني لا أفهم شيئًا من النظام العالمي الجديد. تصورت أن مأساة العراق هي النموذج الأمثل على النظام العالمي الجديد، ثم قيل للعبد لله أنت مخطئ فليس هذا هو النظام العالمي الجديد، هذا وجه من وجوهه وهناك أوجه أخرى كثيرة ومتعددة. وعندما شاهدت مأساة يوغوسلافيا سابقًا وصربيا حاليًا هتفت بيني وبين نفسي: هذا هو إذن النظام العالمي الجديد، ولكن قيل لي أنت واهم فليس هذا هو النظام العالمي الجديد. سألتهم: ما هو النظام العالمي الجديد إذن؟ وما هو الإنجاز الذي يدل عليه ويشير إليه؟ قالوا ولماذا العجلة إن العجلة من الشيطان، اصبر وصابر ورابط وانتظر وسيأتيك الدليل وأنت في مكانك، وعلى رأي المثل.. يا خبر بفلوس بكره يبقى ببلاش!

الطفل الكوبي

والحمد لله والفضل لله أن انتظارنا لم يطل، فقد حدث فجأة وعلى غير انتظار، هبط علينا الدليل من حيث لا نحتسب، الطفل الكوبي الذي أخذته أمه مع زوجها الثاني وانطلقت معه إلى رحلة هروب بالبحر من كوبا إلى الولايات المتحدة. ولكن لأن ليس ما يرجوه المرء يدركه، فلم يكتب للقارب الوصول إلى الشاطئ الأمريكي، انقلب القارب وغرقت الأم وزوجها معها وكتب للطفل الكوبي النجاة، تعلق بالقارب وعثرت عليه دورية أمريكية من خفر السواحل وأخذته معها إلى الشاطئ الأمريكي. قصة عادية ويحدث مثلها كثيرًا. ومأساة طفل كوبي فقد أمه غرقًا ووالده حي يرزق على الشاطئ الآخر في كوبا، المفروض أن يعود الطفل إلى أبيه وتنتهي المشكلة. ولكن هذا ليس رأي النظام العالمي الجديد، لأن النظام العالمي الجديد حمش ولا يسمح لطفل صغير بالعيش تحت سقف نظام شيوعي لا يعرف الرحمة ولا يطبق الديموقراطية ولا يعترف بمزايا النظام الرأسمالي.. وبالفعل تلكأت السلطات الأمريكية في اتخاذ القرار المناسب بشأن مصير الطفل الكوبي، وتحركت منظمات حقوق الإنسان واحتجت، لأن النظام العالمي الجديد ليس حمشًا فقط، ولكنه حمش وخجول، فقد أحال قضية الولد الكوبي إلى المحكمة، وسرعان ما أصدرت حكمها برد الطفل إلى والده الذي يعيش في كوبا.. وصفق العالم للمحكمة الأمريكية

التي حكمت بالعدل وتوقع العالم أن تنتهي مأساة الطفل خلال أيام قليلة، فالمحكمة حكمت والأب أحق بحضانة ابنه. ولكن في النظام العالمي الجديد المحاكم ليست هي صاحبة القرار، هناك الكونجرس ولجانه وأجهزة الإعلام وسطوتها ومنظمات المافيا ورجال العصابات!

وجاء الكونجرس

وبالفعل تحرك رجال الكونجرس واستصدروا قرارًا من الكونجرس بضرورة مثول الطفل أمام إحدى لجانه لاستجوابه بشأن مصيره. طفل في العاشرة من عمره يستفتيه الكونجرس بشأن مصيره! وماذا يدري الطفل من أمر نفسه؟ ولكن مثل هذا الكلام هو كلام رجعي لا يليق استخدامه في النظام العالمي الجديد، لأن النظام العالمي الجديد هو نظام تقدمي يعطي الحرية لكل الناس حتى الطفل الوليد. وإذا كان الناس بتوع النظام العالمي القديم يتصورون أن الأطفال لا رأي لهم ولا شأن لهم بما يجري في العالم، فهو رأي غير صحي وغير صحيح. فأطفال النظام العالمي الجديد مثل الديك الفصيح في البيضة يصيح. أطفال اليوم ليسوا مثل أطفال الأمس، أطفال النظام العالمي الجديد يفتحون عيونهم على عالم جديد تحول إلى قرية، وهم منذ أول يوم لخروجهم من بطون أمهاتهم يستخدمون الإنترنت ويشاهدون القنوات الفضائية وبعضهم يشترك في مناقشات قناة الجزيرة وهم في اللفة. والنظرة

الدونية إلى أطفال النظام العالمي الجديد لم تعد تليق، ولكنها محاولة من عجائز النظام العالمي القديم لإبعاد أطفال النظام العالمي الجديد من احتلال الأماكن اللائقة بهم في صدارة النظام العالمي الجديد!

واحد زائد واحد

وهؤلاء الذين يستنكرون أخذ رأي طفل بشأن مصيره هم في واقع الأمر لا يؤمنون بالديموقراطية وهم بالتأكيد من أنصار النظام الشمولي، وهو النظام الذي اقتلعه النظام العالمي الجديد من أساسه. طيب... افرض إنكم استجوبتم الطفل الكوبي وأنه اختار الحياة مع والده، فهل سيوافق النظام العالمي الجديد على إعادته إلى أبيه؟ المسألة فيها نظر. وفي النظام العالمي الجديد واحد زائد واحد لا تساوي اثنين. ولكنها تساوي خمسة وأحيانًا تساوي سبعة. ونقطة البدء في النظام العالمي الجديد أنه لا يسمح للطفل الكوبي بالعيش تحت سقف نظام شيوعي يؤمن بالحزب الواحد ولا يعترف بالخصخصة وآليات السوق. في هذه الحالة سيكون على النظام العالمي الجديد أن يوفق بين مبادئه ورغبة الطفل.. وإذا كان النظام العالمي الجديد لا يفرط في المبادئ فهو أيضًا لا يمكن له أن يتجاهل رغبة الطفل في البقاء إلى جوار أبيه!

هل فهمتم؟

ولكن كيف سيخرج النظام العالمي الجديد من هذه الورطة؟ هي في الحقيقة لا ورطة ولا أي حاجة، الأمر بسيط للغاية وسيكون من حق الرئيس الأمريكي أن يتدخل لحل المشكلة، فالطفل الكوبي يرغب في العيش إلى جوار أبيه، والنظام العالمي الجديد لا يسمح بتربية الطفل تحت سقف نظام شيوعي لا يؤمن بالله ولا يعترف بالديموقراطية ولا يعمل بالرأسمالية ولا يطبق آليات السوق. إذن الحل المثالي في ظل النظام العالمي الجديد أن يأمر الرئيس الأمريكي بمنح تأشيرة دخول لأمريكا لوالد الطفل. وهذه التأشيرة كفيلة بحل المعادلة المستحيلة ويعيش الطفل في رعاية أبيه وعلى الأرض الأمريكية، أرض الديموقراطية والرأسمالية والنظام العالمي الجديد. ولكن لو فرضنا أن الأب رفض الذهاب إلى الولايات المتحدة، لو حدث هذا سيكون الأب مجنونًا أو في طريقه إلى الجنون، ويكون من حق النظام العالمي الجديد الاحتفاظ بالطفل الكوبي على الأرض الأمريكية. لأن النظام العالمي الجديد أقدر على معرفة مصلحة كل مواطن، وأكفأ على رسم الطريق الذي يضمن لكل مواطن المستقبل السعيد! هل عرفتم الآن ما هو النظام العالمي الجديد؟

ولا أنا؟!

سترك يا رب

زمان كنت حريصًا على السهر حتى الصباح كل ليلة قدر، وكان سبب حرصي هو أن أكون متيقظًا حتى تظهر طاقة القدر فأتقدم لها بكشف طلباتي من متاع الدنيا. كشف يبدأ بالفلوس وينتهي بكل ما يتمنى المرء امتلاكه في هذه الحياة الدنيا. ثم مضى قطار العمر يا ولدي ووجدت نفسي في ليلة القدر الأخيرة أتمتم بكلمة واحدة فقط هي كل طلباتي من ليلة القدر. كلمة واحدة هي الستر! سمعني أحد الأصدقاء فسألني مندهشًا: هل هذه هي كل طلباتك من السماء؟ فأجبته: وهل تظن أن هذا قليل؟ العبد لله وقد بلغ كل هذا العمر لا يطلب من الله إلا الستر، وهو أمر ليس هينًا، ولكنه أمر لو تعلمون عظيم. هل تذكرون ما حدث لشاه إيران؟ عندما تنكر له أقرب الناس إليه، عندما صارت أمنياته أن يجد مكانًا لنفسه يأوي إليه. لا بد أن الشاه في آخر أيام حياته سأل الله أن يمده بالقوة والسلطة والنفوذ والمال، ولكنه فات عليه أن يطلب الستر.. والجنرال موبوتو سيسي سيكو حدث له نفس الشيء، سأل السماء أن تضاعف رصيده في البنوك وأن تمده بأغلى الكنوز التي تضمها المناجم في باطن الأرض.. وكانت النتيجة أنه مات وهو من أغنى أغنياء الأرض ولكنه فقد الستر، فقد الأمن والأمان والاحترام.

اللهم نسألك الستر. وكانت هذه العبارة هي دعوتي في ليلة القدر الماضية وفي كل ليلة قدر قادمة.. ونسأل الله أن تكون ساعة إجابة.

الأطلنطي وفاسو!

يا قوة الله.. ما جرى بالأمس على أرض البلقان هو بداية عصر جديد لا يعلم نهايته إلا رب العباد.. ففي اللحظة التي سقط فيها أول صاروخ لحلف الأطلنطي على أرض يوغسلافيا كانت هي اللحظة التي صدرت فيها شهادة وفاة الاتحاد السوفيتي القديم ووفاة وريثه روسيا الاتحادية. كانت حسابات العبد لله أن حلف الأطلنطي لن يجرؤ على الاقتراب من حدود روسيا. ودولة الصرب ليست جارة لروسيا فقط ولكنها صديقة روسيا الحليفة، ولكن ثبت أن معلومات حلف الأطلنطي أكثر دقة من معلومات العبد لله. ومع توالي الضربات القاتلة لم تفعل روسيا أكثر من شجبها للعدوان الغاشم. والشجب اختراع عربي فرضه العرب على مناطق شتى في العالم، ولكنها المرة الأولى التي تنضم فيها قوة عظمى كروسيا إلى طابور الشاجبين. ومن حقنا نحن العرب أن نفخر باختراعنا، فقد نجحنا في التأثير على دولة عظمى تملك الرءوس النووية والصواريخ العابرة للقارات.

عشا الغلابة

ما أشبه روسيا الاتحادية بالمعلم قطب فتوة حارة الفاتح بالجيزة، كان إذا تعرض للضرب أو للإهانة وقف في الشارع وفتح جاعورته بكلام من نوع «أنا هاعمل الشيء اللي عمر حد ما عمله قبل كده بس عشان ما حدش يلومني أنا باشهد الناس اللي في الشارع ولما اقتل ثلاثة أو أربعة رجالة ما حدش يجيب الحق عليَّ وخليكو شاهدين يا ناس أنا أنضرب على قفاي؟!» ولم يكن المعلم قطب يفعل شيئًا أكثر من ذلك. ولكن الفرق الوحيد بين قطب وروسيا أن قطب كان من الصنف الغلبان، شوكته مكسورة وظهره أيضًا، أما روسيا فهي إحدى القوتين العظميين وترسانتها الحربية تحوي أجيالًا جديدة من الصواريخ عابرة للقارات وأسلحة نووية تكفي لتدمير العالم. ولكن يبدو أن هذه هي فكرتنا عن روسيا، أما حقيقتها فقد كشفتها حملة هجوم حلف الأطلنطي على دولة الصرب. مجرد كيان غلبان ومهزوم ودايخ وخارج من القصر العيني.. وعشا الغلابة عليك يا رب!

حلف فاسو

والشيء الذي يبعث على الفخر أن الأحداث الأخيرة أثبتت أن العرب ليسوا ظاهرة صوتية كما يزعم البعض، فالواقع أنها ظاهرة حية وفاعلة مؤثرة، وها هو اختراعنا الفريد «الشجب»! انتقل بسرعة

البرق من حدودنا إلى دول إفريقيا الغلبانة، ومن هناك انتقل إلى الدولة العظمى روسيا، دليل أننا نحن العرب لا زلنا مؤثرين وأساتذة لنا تلاميذ من بوركينا فاسو إلى روسيا فاسو! ويخيل للعبد لله أن العالم ينقسم الآن إلى جبهتين، حلف الأطلنطي وحلف فاسو. وبعد ضرب دولة الصرب لن يستطيع أحد أن يفتح فمه بكلمة، حتى الشجب سيصبح محرمًا وممنوعًا على الغلابة والمستضعفين!

خارج السرب

الغريب والعجيب أن إسرائيل وحدها هي التي تقف وحيدة خارج حلف وارسو.. دليل أن الرئيس كلينتون بجلالة قدره عقد معها اتفاق واي بلانتيشن، ومع ذلك قالت للعالم كله: لن أنفذ شيئًا من الاتفاق وعليكم أن تبلوا الاتفاق وتشربوا ميته! والأغرب أن الرئيس كلينتون شجب الموقف الإسرائيلي واقترح على حكومة نتنياهو الكف عن بناء المستوطنات في الأراضي الفلسطينية.. وردت إسرائيل بمزيد من المستوطنات، وخد عندك كل يوم مستوطنة. واستنكرت الأمم المتحدة عبث إسرائيل وعربدتها في مدينة القدس. وردت إسرائيل قائلة «طظ في الدنيا كلها» وأمعنت في عبثها وعربدتها في القدس. وتكشفت الأمور عن واقع مؤلم للغاية، الدنيا كلها بما فيها الولايات المتحدة والرئيس كلينتون في حلف فاسو بينما إسرائيل وحدها في حلف الأطلنطي. أليس هذا هو الوضع الحالي في عالم اليوم!

والذي يقهر النفس ويكسر القلب أننا نحن العرب كنا يومًا ما سادة الأرض، وكان شاعرنا يخاطب الدنيا كلها قائلًا:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا　　ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما　　تخر له الجبابر ساجدينا
إذا الملك الجبار صعر خده　　مشينا إليه بالسيوف معاتبينا

ولكن.. هل كنا حقًّا كما وصفنا الشاعر إياه؟ يخيل للعبد لله أن الشاعر إياه كان من نوع المعلم قطب فتوة شارع الفاتح. فقد كان هو الآخر ينطلق هائمًا على وجهه في الشوارع يجتر أزمته ويعزي نفسه قائلًا:

الحديد بلي واحنا لم بلينا

والغريب أن شعر قطب من نفس الوزن ونفس البحر الذي استخدمه الشاعر إياه بتاع زمان:

الحديد بلي واحنا لم بلينا
تخر له الجبابر ساجدينا
مشينا له بالسيوف معاتبينا

والفرق أيها السادة، يخيل للعبد لله أن عمرو بن كلثوم شاعر

زمان نطق بهذا الشعر وهو يجلس على الرمل مستندًا بظهره على جذع نخلة هارشًا جلده بأظافره الطويلة رابطًا حجرًا على بطنه من شدة الجوع صارخًا كما فعل المعلم قطب بعده بمئات السنين:

الحديد بلي واحنا لم بلينا

يبدو أنها الحقيقة أيها السادة، والشعراء يتبعهم الغاوون، سواء كان عمرو بن كلثوم أو قطب بن الصايعة. وأننا نحن العرب كنا في حلف فاسو منذ بدء الخليقة وحتى الآن!

زكي جمعة

عزاؤنا الوحيد أن العالم كله دخل معنا في حلف فاسو الآن، ولم تعد هناك فرصة لأي أحد مهما كان أن يرفع رأسه أو يرفع صوته بالاحتجاج. وبالأصالة عن نفسي أنا السعدني أبو عثمان أبو محمود أعترف لحضراتكم أنني موافق ومبسوط وخدام لحلف الأطلنطي وحلف المحيط الهادي وأي حلف يظهر في المستقبل. ومستعد للخدمة في أي وقت ومستعد أيضًا لتوصيل الطلبات إلى المنازل وعلى طريقة عادل إمام.. يعيش حلف الأطلنطي.. يعيش زكي جمعة.. تعيش الوحدة العربية! وأقول لكم بصراحة وبشجاعة وبكل الأمانة والصدق:

الحديد بلي واحنا لم بلينا!

ترعة المانش

هزني من الأعماق نبأ انتخاب السباح العالمي عبد المنعم عبده وكيلًا لاتحاد السباحة. والبطل عبد المنعم عبده بلغ الثمانين من عمره، مد الله في عمره، وهو أكثر السباحين المصريين شهرة في أوروبا، بالرغم من أنه فشل عدة مرات في عبور المانش. ولعل هذا الفشل الذي صادفه أكثر من مرة في عبور المانش هو السبب في شهرته وفي الاحترام العميق الذي يحظى به خصوصًا في بريطانيا. والسبب أن البريطانيين لا يحتفلون بالذي يحقق النجاح فقط ولكنهم يحتفلون أكثر بالبطل الذي يفشل ثم يعاود المحاولة من جديد. فإذا عاود البطل المحاولة أكثر من مرة، فمعنى هذا أنه رجل مقاتل لا يعترف بالهزيمة ولا يستسلم للفشل. والشعب البريطاني شعب مجرب، جرب الفشل أكثر من مرة خلال الحرب العالمية الثانية وأصيب الجيش البريطاني بعدة هزائم مدوية، كانت كل هزيمة منها كفيلة باستسلامه وخضوعه للألمان. ولكنه ابتلع الهزيمة وانتفض

واقفًا من تحت أنقاضها وعاود القتال، وكأن شيئًا لم يكن وبراءة الأطفال في عينيه!

* * *

وكانت هزيمة الجيش البريطاني في دنكرك هي سبة في جبين أي جيش. عندما اضطر عشرات الألوف من القوات البريطانية إلى ترك أسلحتهم الثقيلة والخفيفة والهروب بأنفسهم إلى الشاطئ الإنجليزي عبر بحر المانش، ولم يكن انسحابهم طبقًا لخطة موضوعة ولكنه كان فرارًا من جحيم المعركة ولم يكن لهم هدف إلا النجاة بأنفسهم، واشتركت في إنقاذهم مئات السفن التي اتفق وجودها في البحر وقتئذ. قوارب صغيرة ومراكب صيد ومراكب شحن قليلة الحمولة. ولذلك فقد عدة مئات من الجنود أرواحهم بسبب تدافعهم ورغبتهم في اللحاق بأي شيء يسبح فوق سطح الماء، مما أدى إلى انقلاب بعض المراكب وغرق بعض القوارب. وتصور الألمان بعد معركة دنكرك أنهم هزموا الجيش البريطاني بالضربة القاضية وأنه لن يفيق منها أبدًا!

معركة طبرق

وكانت معركة طبرق هي الهزيمة الثانية وهي الهزيمة الساحقة الماحقة.. على رأي المعلق الشهير عادل شريف يرحمه الله. ويومها يسقط في الأسر عشرات الألوف من البريطانيين وأضعاف هذا العدد من الهنود وأبناء المستعمرات الإفريقية. وكانت هذه المعركة

سببًا في عزل القائد البريطاني ومحاكمته. وابتلعت الصحراء مئات من الجنود البريطانيين الذين تفرقوا داخل الصحراء طلبًا للنجاة، وكانت النتيجة موت هؤلاء الجنود عطشًا وجوعًا. ومرة أخرى تصور الألمان أنهم تخلصوا إلى الأبد من هذا العدو المشاكس.. غير أن البريطانيين أثبتوا أنهم خبراء في امتصاص الهزائم والعودة من جديد أكثر عنادًا وتصميمًا على مواصلة القتال. ولذلك كان انتصارهم نهائيًّا لأنه تحقق بعد سلسلة من الهزائم المريرة. وحقق البريطانيون عمليًّا المثل القائل: الضربة التي لا تقتلني تزيدني قوة.

البطل الأستاذ

والسباح العالمي عبد المنعم عبده في نظر البريطانيين هو النموذج الحي لهذا المثل البريطاني الشائع، فقد حاول عبور المانش مرة وفشل وحاول مرة ثانية وفشل وحاول مرة ثالثة وفشل، ولكنه لم يكف ولم يتوقف، كان يعود كل مرة إلى الشاطئ ويكرر المحاولة، حتى نجح أخيرًا وعبر المانش وصار أشهر مائة مرة من البطل مرعي حماد والبطل حسن عبد الرحيم وهما البطلان اللذان حققا المعجزة، ونجحا في عبور المانش من أول محاولة. ولم يكن أحدهما قد رأى المانش من قبل، فليس مهمًّا أن تعبر ولكن المهم أن تحاول إذا فشلت ثم تحاول مرة أخرى، ثم تستمر في المحاولة. فهذا هو النضال الحقيقي وهذا هو جوهر الروح الإنسانية التي لا تكل ولا تمل ولا تكف ولا تتوقف. فالحياة نفسها هي محاولة يومية، كما أنها محاولة مستمرة رغم الخيبة

والفشل وسوء الحظ.. فالعبد لله لا يشعر بود حقيقي نحو البطل عبد المنعم عبده وزملائه من السباحين الكبار، لأن العبد لله يكره السباحة ويكره النزول في الماء، كما أنني فشلت مرة واحدة في عبور ترعة سبك وقررت عدم إعادة المحاولة، وحتى الآن أذهب إلى شاطئ البحر كل صيف وأمارس هوايتي وهي النوم بالنهار والسهر بالليل مكتفيًا بالجلوس على الشاطئ أرنو من بعيد إلى الأمواج وهي تتلاطم وإلى السباحين وهم يتلعبطون في الماء. ومع ذلك ولأن النفس أمارة بالسوء فكرت ذات مرة في إعادة المحاولة. وكان ذلك ذات صيف على شاطئ رأس البر، فقررت أن أخوض التجربة تحت إشراف أستاذ مشهود له وكان الأستاذ هو البطل عبد المنعم عبده!

مع الأستاذ

وجلس أستاذي معي على الشاطئ يشرح لي المسألة ببساطة. قال: ليس عليك إلا أن تستلقي على الماء وأن تحرص على أن يكون رأسك عاليًا. وسأقوم أنا بباقي العمل. ولن تحتاج إلا إلى ثلاث محاولات، وبعدها تصبح سباحًا. فقد تتطور أحوالك في المستقبل فتعبر المانش، وربما تتطلع إلى أبعد من هذا فتعبر البحر الأبيض المتوسط، وقد تقاطع شركات الطيران في المستقبل فيصبح سفرك إلى أوروبا بالمجان، وقد تتخذ منها مهنة في المستقبل وتأخذ المسافرين على ظهرك مرة إلى فرنسا ومرة إلى إسبانيا ومرة إلى اليونان.. وقلت للبطل عبد المنعم عبده: العبد لله رجل بسيط

وأحلامه متواضعة وكل ما أرجوه هو أن أتمكن من عبور ترعة سبك التي لا يزيد عرضها على خمسة أمتار، والتي فيها من الطين أكثر مما فيها من الماء، والتي ليس فيها من الأسماك إلا البساريا وبعض الضفادع والديدان. ورد عليَّ البطل العالمي وقال: كل الأبطال العظام كانت أحلامهم متواضعة مثل أحلامك، ورحلة الألف ميل كما يقولون تبدأ بخطوة واحدة وستدخل ترعة سبك التاريخ باعتبارها الخطوة الأولى لمشوار البطل العظيم في مستقبل الأيام. وتوكلت على الله ونزلت الماء عند شاطئ رأس البر ومعي البطل عبد المنعم عبده، وفعلت كما أمرني بالضبط: استرخيت على المياه وفردت ذراعي أمامي ورفعت رأسي إلى أعلى ومد يده وحملني بكفيه لكي أبقى عائمًا فوق الماء، ورحت أضرب بقدمي في الماء بشدة وأجدف بذراعي، وقضيت نصف ساعة أبلبط في الماء ثم قال: هذا يكفي اليوم وغدًا يوم آخر. ولكن لأن كل شيء مرهون بمشيئة الخالق، ولأنني أريد وأنت تريد ولكن الله يفعل ما يريد، فقد خرجت من الماء وقد شب حريق في كف يدي ولا حرائق آخر السنة قبل الجرد.

أفيون وحشيش

وقضيت النهار كله أهرش بأظافري حتى تشقق جلدي ثم زادت رغبتي في الهرش فاستعنت بأسناني حتى بدت عظامي. وذهبت إلى القاهرة وأنا في حالة يرثى لها، وجلست أمام الدكتور حسن

الحفناوي يرحمه الله ومددت له يدي وفحصني وتمتم بكلمة واحدة: بسيطة. ثم وصف لي دواء وناولني إياه وقال: خذ حبة صباحًا وحبة مساء. وقلت للدكتور الحفناوي: لقد استخدمت عشرة أدوية حتى الآن ولكن الحال ازداد سوءًا. فابتسم وقال: ولكن هذا الدواء سيشفيك على الفور. وبالفعل عندما تناولت الحبة الثانية في المساء توقفت كل الآلام واندملت الجراح وكأني كنت أمزح.. وواظبت على تناول الدواء، وعندما حان وقت كتابة مقالي الأسبوعي في مجلة صباح الخير، وجدت نفسي عاجزًا عن كتابة أي حرف. لم أعد أشعر برغبة في الكتابة وشعرت بأني غير قادر على الانفعال، وتحولت إلى شخص سعيد بلا مناسبة وهادئ بلا مبرر، تجردت من كل مشاعر الغيظ والغيرة، وتبلد إحساسي وكأنني أبله لا أرغب ولا أطمع ولا أتحمس ولا أريد. وزارني صديق مجرب ونظر إلى وجهي طويلًا وتساءل بدهشة: ما لك يا محمود؟ قلت: لا شيء. عاد يسأل: هل أكلت شيئًا؟ أجبته: بالطبع أكلت بيضًا وفولًا في الإفطار. قال: أسألك هل استحلبت قطعة أفيون؟ هل بلعت قطعة حشيش؟ قلت: أنا لا أتعاطى هذه الأشياء. قال: ولكن لون وجهك غريب وفي عينيك لمعة لم أرها من قبل. قلت: ربما من المرض الذي ألم بي. قال: وهل تأخذ دواء. قلت: نعم.. وهذه هي العلبة!

المهم النية

واختطف صديقي العلبة من يدي وألقى بمحتوياتها في سلة المهملات، وقال لي: يخرب عقلك يا محمود تتناول الكيرتزون؟! قلت: وما هو الكيرتزون؟ قال: هذا أخطر دواء اكتشفه الإنسان، هذا دواء مفعوله سحري في البداية، ولكن رد فعله وآثاره الجانبية لا أحد يستطيع أن يتنبأ بها على الإطلاق. وهكذا شفيت، ولكن قضيت أسبوعين بعد أن توقفت عن تناول الدواء في حالة «تبليم» كأنني سكران أو مسطول أو مضروب علقة من محمد على كلاي. وقاطعت البحر وأقسمت ألا أعود إليه، وخاصمت البطل عبد المنعم عبده، وأقسمت بألا تكون لي به علاقة لا هو ولا غيره من أبطال السباحة الميامين. لقد ثبت أن ترعة سبك لها لعنة مثل لعنة الفراعنة وأنها أقوى من المانش ومن عبد المنعم عبده ومن حلف الأطلنطي نفسه، وقررت عدم التعامل معها على الإطلاق، لا في البر ولا في البحر، ويكفيني أنني حاولت وفشلت وسيذكرني الجميع يومًا ما رأسي برأس عبد المنعم عبده، الذي فشل هو الآخر وحاول. إذا كان هو قد عاود المحاولة أكثر من مرة، فالمهم النية ولكل امرئ ما نوى، وأنا نويت وانتهيت، وليه بقى لوم العزل.. مع الاعتذار للمعلم الكبير سيد درويش. تحية للبطل الكبير عبد المنعم عبده وتهنئة من القلب لانتخابه وكيلًا لاتحاد السباحة. فهو الرجل المناسب في المكان المناسب. لعل السباحة تزدهر في عهده السعيد!

حلاوة زمان

العبد لله كان أول صحفي سلط الأضواء على المشايخ من مقرئي القرآن، وجعل من قصصهم مادة مقروءة يحرص على قراءتها ألوف القراء. وكانت البداية في عام ١٩٥٠، عندما نشرت ما تيسر عن الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ الشعشاعي والشيخ محمد سلامة وآخرين على صفحات جريدة صوت الأمة. لم يكن أحد من الصحفيين قد سبق العبد لله في ارتياد هذا المجال إلا الأستاذ الزجال المعروف محمد عبد المنعم أبو بثينة، عندما خاض معركة صحفية ناجحة إلى جانب الشيخ رفعت ضد مدير الإذاعة المصرية الإنجليزي الذي اختلف معه الشيخ رفعت وانتهى الحال بينهما إلى مقاطعة الشيخ رفعت للإذاعة. وكان من نتيجة الحملة الصحفية التي خاضها الأستاذ أبو بثينة أن اعتذر المدير الإنجليزي للشيخ رفعت، وعاد الشيخ صاحب الصوت الذهبي ليشدو بآيات الذكر الحكيم من خلال ميكرفون الإذاعة. وبالرغم من أنني من عشاق الشيخ رفعت، وبالرغم من إيماني الشديد بأنه أعظم من

رتل القرآن في كل العصور بعد سيدنا بلال، بالرغم من ذلك كنت أتمنى لو يستجيب الشيخ رفعت لطلبات المدير الإنجليزي، فقد كان يرغب في تسجيل القرآن كله بصوت الشيخ. ولكن بعض أبنائه وبعض أصدقائه رفض الصفقة، ونصحوه بعدم التسجيل، ظنًّا منهم أن تسجيل القرآن بصوته سيجعل الإذاعة تستغني عن خدماته.

زاوية أسبوعية

وكانت نتيجة هذا الموقف المؤسف هو أننا خسرنا هذا الكنز الذي ليس له مثيل، فليس للشيخ العبقري إلا تسجيلان اثنان: أحدهما يحتوي على سورة طه والآخر يتضمن سورة مريم. وفيما عدا هذين التسجيلين فهي كلها بفعل هواة استخدموا أجهزة تسجيل غير صالحة لمثل هذا العمل التاريخي الخالد. وفي عام ١٩٥٤ قمت وعلى مدى عدة أشهر طويلة بكتابة زاوية أسبوعية عن مشاهير القراء في مصر، ومنذ عمنا الكبير الشيخ أحمد نوا وإلى حبيبنا الشيخ محمود البنا، نسأل الله أن يرحم الجميع وأن يسكنهم فسيح جناته، ثم جمعت المادة في كتاب أعتقد أنه أول كتاب من نوعه عن مشايخ التلاوة. وصدر الكتاب بعنوان «ألحان السماء». ومن عجائب الصدف أنه صدر والعبد لله نزيل سجن الواحات الخارجة بتهمة الشيوعية.

صفحة كاملة

والحق أقول إنه سبقني في هذا العمل فصل في كتاب من تأليف عمنا الشيخ عبد العزيز البشري.. وكان يضم صورًا غاية في الإبداع لسياسيين وشعراء وأدباء وفنانين. وكان من بينهم فصل عن الشيخ علي محمود يرحمه الله. ومنذ صدور الكتاب ـ ألحان السماء ـ صار من عادة الصحف نشر فصول عن مقرئي القرآن الكبار. وفي سنوات الضياع خارج مصر، وعندما التحقت بالعمل في جريدة السياسة، قمت بإجراء حديث مع الشيخ عبد الباسط عبد الصمد وقمت بنشره على اتساع صفحة كاملة. وقبل نشره سألني أحمد الجار الله مندهشًا: حديث مع مقرئ؟ ومن حسن الحظ أن أحمد الجار الله لم يكن من طبقة رؤساء التحرير الذين يفرضون رأيهم أو ذوقهم على صفحات جريدته. وبعد نشر حديث الشيخ عبد الباسط نشرت حديثًا آخر للشيخ أحمد الرزيقي، وبعد ذلك صارت أحاديث المشايخ مادة مقررة على صحف الكويت، خصوصًا في مناسبة شهر رمضان!

أبواب ثابتة

وستجد الآن في بعض الصحف أبوابًا ثابتة بمناسبة الشهر الفضيل عن المقرئين، وحتى القناة الفضائية المصرية تذيع برنامجًا أسبوعيًا عن المقرئين القدامى، منهم من يستحقون الذكر

والخلود، وبعض الجدد منهم من يستحقون النشر عنهم أو إذاعة قصص حياتهم في برنامج أشهر الجرائم. المهم أنه صار مألوفًا الحديث عن المقرئين أو الحديث معهم باعتبارهم نجومًا زاهرة في المجتمع، لهم جمهور من المعجبين هو بالتأكيد أعرض من جمهور المطربين والفنانين، خصوصًا عندما يكون المقرئ نجمًا من طبقة الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد والشيخ أبو العينين شعيشع والشيخ الطبلاوي.

محمد جبريل

ولكني أخشى أن تفقد هذه الطائفة اهتمام الناس بهم بعد عدة سنوات، فلم يعد في دولة التلاوة من يستحق الاهتمام به. البعض منهم ما يزال على قيد الحياة ولكنهم على وشك الرحيل. ولكن الساحة تضيق بالمقلدين الذين لا يجيدون التقليد، وبالفاشلين الذين أخطأوا طريقهم في الحياة فاحترفوا مهنة لا تليق بهم وليسوا مؤهلين لها. ولو ظهروا قبل ثلاثين عامًا لكان مصيرهم بالتأكيد مقابر الإمام الشافعي، لأن مواهبهم لا تصلح إلا للقراءة في المقابر. وصحيح أن من بين الشباب الصاعد من يبشر بالخير كالشيخ محمد جبريل مثلًا، فله صوت حسن وطريقة ممتازة. ولا أعرف الأسباب التي أدت إلى تجاهل أجهزة الإعلام المصرية له، بينما تفسح في حفلاتها الدينية وفي ميكرفوناتها وقتًا طويلًا لعديمي الموهبة ومعطوبي الحنجرة. قد يكون السبب في المقاطعة هو الشيخ

جبريل نفسه؛ لأنه مغرور بعض الشيء ومفتون بنفسه على نحو ما، ولكن لا عذر لأجهزة الإعلام لأنها تتعامل مع المواهب وليس مع أصحابها. وقد يكون الموهوب مغرورًا أو مفتونًا، ولكن ما المانع إذا كانت موهبته تسعد الناس.

٥ دقائق

والعبد لله يتهم التليفزيون المصري بأنه السبب في انطفاء جذوة هذا الفن، لأن مساحة تلاوة القرآن الكريم قبل مدفع الإفطار اختصروها في رمضان الحالي إلى ٥ دقائق وكانت نصف ساعة قبل ربع قرن.. وحرمونا هذا العام من الاستماع إلى الأصوات العظيمة التي كانت تذكرنا بأننا في شهر رمضان. أصوات المشايخ العظام: الشيخ عبد العظيم زاهر والشيخ منصور الشامي الدمنهوري والشيخ فريد السنديوني. وزمان مثلًا كانوا يذيعون صلاة الفجر بالقرآن الكريم ثم بالابتهالات الدينية ثم يختمون الفقرة بالقرآن قبل إقامة شعائر صلاة الفجر، أما الآن فهم يكتفون بإذاعة القرآن في البداية ثم الابتهالات الدينية ثم الصلاة. والعبد لله لا يتهم القائمين على أمور التليفزيون بأي شيء، ولكنه فساد في التنسيق وفساد في معرفة نبض الجماهير. وهو السبب نفسه الذي أدى بهم إلى سجن صلاة الجمعة وقتًا طويلًا في هذا الخندق المسمى بمسجد التليفزيون. ولولا أننا زجرناهم زجرًا شديدًا لبقيت صلاة الجمعة محاصرة في هذا الخندق حتى الآن.

على العموم.. قراءة القرآن بالطريقة المصرية هي فن عظيم، كما أنها الطريقة الأفضل والأحسن على اتساع العالم الإسلامي. وحرام أن نترك هذا الفن العظيم يموت ونحن شهود على ذلك. وعلى أجهزة الإعلام أن تبحث عن الأفضل والأحسن لتقدمه للناس من أوسع الأبواب بدلًا من الأصوات الملساء والأصوات الصلعاء.. وكلها بلا نبض ولا إحساس.

ورحم الله أيامًا حرص فيها الملك محمد الخامس على استدعاء الشيخ عبد الباسط عبد الصمد لإحياء ليالي شهر رمضان في قصره بالصخيرات، وأيامًا أخرى أوصى فيها الملك غازي ملك العراق بأن يقرأ في مأتمه الشيخ شعيشع والشيخ الشعشاعي.. يرحمه الله.

ما الذي جرى؟ وكيف تغيرت الأحوال؟ ولماذا انحسر المستوى على هذا النحو؟

والله يرحمه ويحسن إليه عمنا المرحوم الشيخ منصور بدار مقرئ السلطان العثماني في القسطنطينية، والله يرحمه ويحسن إليه عمنا الشيخ محمد رفعت، والله يرحم الجميع ويغفر لهم، من أول الشيخ محمد سلامة إلى الشيخ محمد الصيفي إلى الشيخ مصطفى إسماعيل إلى الشيخ الشعشاعي إلى الشيخ عبد العظيم زاهر إلى الشيخ السنديوني إلى الشيخ المنشاوي إلى الشيخ عبد الباسط

عبد الصمد إلى الشيخ محمود البنا إلى كل المشايخ الكبار نجوم دولة التلاوة الذين سبقونا إلى رحاب الله. لم يبق من هؤلاء الكبار إلا الشيخ أبو العينين شعيشع حفظه الله وأبقاه، باعتباره نفحة من حلاوة زمان. لقد تذكرت كل هؤلاء لحظة وقع بصري على أسماء الفائزين في المسابقة الدولية للتلاوة التي أقيمت في دبي، والتي اشترك فيها عشرات من الموهوبين من أنحاء العالم الإسلامي. ولم أجد مصريًّا واحدًا بين الفائزين. بينما كان من بين الفائزين سوداني وصومالي وواحد من الجمهورية البوسنية وواحد من قطر وواحد من ماليزيا.. ومبروك طبعًا للفائزين. وأقول لكم إنني بقدر ما حزنت لغياب فائز مصري واحد، بقدر ما فرحت لفوز متسابق من جمهورية البوسنة. هذا الفائز هو مندوب شعب البوسنة الأوروبي المسلم الذي أراد المتآمرون إبادته. ولكن شعب البوسنة المسلم تصدى للمؤامرة وواجه المتآمرين وأفشل خطتهم. وبعد الحرب تمكن من أن يقدم للعالم الإسلامي شابًّا في ربيع العمر يرتل القرآن بصوت جميل وبأسلوب باهر وساحر وجميل.

هذا هو السؤال

ونفس الشيء حدث للعبد لله؛ تذكرت كل الراحلين العظام من نجوم دولة التلاوة عندما استمعت إلى شاب إيراني يرتل القرآن الكريم في حفل افتتاح المؤتمر الإسلامي في طهران. كان الفتى شابًّا في ربيع العمر يتمتع بلياقة بدنية عالية، صدره صدر ملاكم، ونفسه

نفس عدَّاء إفريقي، وطبقات صوته سليمة سواء في طبقة القرار أو في طبقة الجواب وجواب الجواب. والمدهش أنه كان يقرأ بطريقة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد. وأشهد أن الشاب الإيراني ذكرني بالشيخ عبد الباسط عبد الصمد. في بداياته عام ١٩٥٠. وكان نجاح الشاب الإيراني المذهل في أداء جميع الطبقات. جامعًا في الوقت نفسه بين قدرة الشيخ رفعت في طبقة القرار وقدرة الشيخ مصطفى إسماعيل في طبقة جواب الجواب. كان هذا النجاح المذهل سببًا في أن أطرح على نفسي سؤالًا: ماذا جرى لهذا الفن السماوي في مصر؟ وما الذي جعل المصريين يتراجعون في دنيا التلاوة بعد أن كانت لهم السيادة وكان من بينهم العباقرة الأوائل الذين رحلوا عن دنيانا إلى رحاب الله؟!

كتاتيب سيدنا

نعم.. ما هو سبب تراجعنا في هذا المجال إلى الدرجة التي تحتاج إلى خبراء لرصدها؟ ولكن من السهل على أي سمِّيع عادي أن يرصدها ببساطة، ليس العباقرة وحدهم هم الذين نفتقدهم الآن، ولكن حتى المقرئين من الطبقة التي جاءت بعد العباقرة مثل الشيخ البهتيمي والشيخ هريدي الشوربجي والشيخ السعدني والشيخ محمود عبد الحكم والشيخ منصور الشامي الدمنهوري والشيخ عبد الرحمن الدروي.

نعم.. ما السبب؟ هل هو اختفاء الكتاتيب في ريف مصر؟

وبالتالي اختفاء سيدنا الذي كان يقوم بتحفيظ القرآن للأطفال وهو يمسك بيده العصا اللهلوبة لمعاقبة المهملين والذاهلين؟

أساتذة التغذية

هل هذا هو السبب أم أن هناك أسبابًا أخرى يجب اكتشافها والوصول إلى علاج لها.. ولا يمكن أن يقوم بهذه المهمة إلا لجنة عليا من كبار علماء الدين وكبار علماء الاجتماع وكبار الأطباء وأساتذة علم التغذية. وقد يسأل سائل: وما علاقة كبار أساتذة التغذية بهذا الأمر؟ والإجابة جاءت على لسان الشيخ أبو العينين شعيشع عندما وجهت له إذاعة لندن سؤالًا عن السبب في تراجع هذا الفن الجميل في مصر. فأجاب بأن السبب هو اختفاء الطعام الحقيقي ليحل محله هذا الطعام البلاستيك الذي نأكله الآن. وكلام الشيخ أبو العينين شعيشع هو كلام جاد جدًّا وليس مزاحًا؛ لأن الغذاء هو الذي يبني الجسم، والأحبال الصوتية هي جزء من جسم الإنسان. وإذا كان الطعام من البلاستيك فلا بد أن تكون العضلات والمجانص والضلوع والعظام والأحبال الصوتية أيضًا من الصنف نفسه.

اقرأوا الفاتحة

ثم.. هناك سبب رئيسي يعتبر في المقدمة من الأهمية وهي لجنة الاستماع في التليفزيون والإذاعة التي أصبحت مقرًّا

وممرًّا لكل الأصوات حتى التي لا تصلح للعويل والصراخ. ويقول البعض إن لجنة الاستماع حتى لو ضمت أرفع مستوى من الخبراء فإنها لن تغير شيئًا لأن الأصوات الموجودة الآن تحتاج إلى لجنة تصليح وليس إلى لجنة استماع. وفي مواجهة هذه الأوضاع المتردية لا نملك جميعًا إلا أن نرفع أكفنا إلى رب السماء طالبين منه سبحانه وتعالى أن يرفع مقته وغضبه عنا، وأن يمنحنا القوة على العودة إلى العصر الذهبي للتلاوة، عصر محمد رفعت ومصطفى إسماعيل.

وتحية من القلب إلى كل شاب في عمر الزهور اشترك في مسابقة دبي الدولية. وتحية خاصة للمتسابقين من البوسنة ومن رومانيا ومن الولايات المتحدة الأمريكية. ومبروك للذين نجحوا، وحظ أسعد للشباب المسلم الذين لم يحالفهم التوفيق في مسابقة دبي.. حظ أسعد لهم في مستقبل المسابقات.

واقرأوا الفاتحة في هذا الشهر الكريم على روح الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وعلى أرواح جميع العباقرة من المقرئين الذين انتقلوا إلى رحمة الله.

البركان.. والفاسو!

بصراحة وبوضوح وبأمانة أيضًا العبد لله يريد أن يصارح أبناء شعبه، خصوصًا جماهير الكورة منهم، أن يتعلموا من إخوانهم أبناء إفريقيا السوداء.. نتعلم إيه؟ حضارة. نحن أبناء أول حضارة عرفها التاريخ. نحن أول من كتب الكلمات على الورق، ونحن الذين علمنا الدنيا الرسم والموسيقى والنقش على الحجر. ونحن أول من عبد، عبدنا الطائر والعجل والشمس، وكنا أول من اهتدى إلى عبادة الإله الواحد. حتى الحكومة المركزية القوية القابضة على صولجان العدل والحكمة هي أحد الاختراعات المصرية.

عشم إبليس

طيب.. نتعلم إيه من إفريقيا؟ نتعلم السلوك الرياضي ونتصرف مع النصر والهزيمة بروح رياضية. ولا أكشف سرًّا إذا قلت إن العبد لله وألوفًا آخرين من المشجعين في بر مصر كانوا يضعون أيديهم على قلوبهم إشفاقًا وخوفًا على مصير منتخب مصر وهو

يلعب غريبًا ووحيدًا وسط الألوف المؤلفة من أبناء بوركينا فاسو. ولكن.. لماذا في بوركينا فاسو بالذات؟ ولقد سبق لنا اللعب في بلاد إفريقية كثيرة ولم نجد من جماهيرها إلا كل ما يجعلنا نهدأ ونطمئن؟ السؤال وجيه والجواب حاضر أيضًا. لأن بوركينا فاسو مجهولة لنا نحن المصريين، ولا نعرف عنها إلا أنها كانت معروفة باسم فولتا العليا، ثم إن الكورة البوركيناوية ليس لها في تاريخ الكورة الإفريقية سُمعة ولا ذكر وبالطبع كان أمل مشجعي بوركينا أن يخرجوا من الدور الأول بشرف. ولكن الذي حدث كان أعجب من العجب: وصل الفريق البوركيني إلى دور الثمانية، ثم قفز إلى دور الأربعة. معجزة كروية ليس لها تفسير.. بوركينا فاسو تصعد لدور الأربعة بينما خرج من البطولة فرق لها تاريخ ولها عِزوة، وبعضها حجز لنفسه مكانًا في كأس العالم. خرجت غانا وكوت ديفوار وتونس والمغرب وزامبيا والجزائر وغينيا ولم يبق إلا بوركينا فاسو.. وفريق بهذا الحجم يصبح عشمه في الكأس أشبه بعشم إبليس في الجنة، لكن ليه؟ ما دمنا وصلنا إلى هذا المستوى فلماذا لا نكمل المشوار، والفرق التي بقيت في الميدان ليست أفضل من الفرق التي خرجت؟ وهو حلم مشروع خصوصًا والأرض أرضهم والجمهور جمهورهم وحكام الكورة في مثل هذه الظروف يضطرون إلى مجاملة الفريق صاحب الملعب وصاحب الجمهور، خصوصًا إذا كان رئيس الدولة على رأس جمهور المتفرجين. وهي حالة ليست وقفًا على الدول الإفريقية، ولكنها أصبحت عامة في مسابقات الكورة، حتى في قارة الفنون والعلوم وحقوق الإنسان أوروبا. أذكر أنني تابعت مباريات كأس

العالم ١٩٦٦ في لندن. وعشية المباراة الختامية بين إنجلترا وألمانيا سألت الفريق عبد العزيز مصطفى، وكان وقتها يشغل منصب نائب رئيس الاتحاد الدولي، سألته: من الذي سيفوز بالكأس غدًا؟ سألني بدوره: كأس إيه؟ أجبته: كأس العالم فيه غيره.. قال الرجل المسئول في اتحاد الكورة: في الكورة تكسب ألمانيا ولكن الكأس تحصل عليه إنجلترا. سألته: كيف؟ قال: بكرة تتفرج وتشوف. وفي الغد تفرجت وشفت، وأقسم لكم بكل المقدسات أن الذي فاز بالمباراة هو فريق ألمانيا أما الكأس فقد ذهبت إلى فريق إنجلترا، والفضل للحكم السويسري ولحامل الراية الروسي. وكان أغرب شيء سمعته من الفريق عبد العزيز مصطفى هو قوله: ليس من المعقول أن يعطى الكأس للفريق الألماني وسط مائة وخمسين ألف مشاهد إنجليزي وعلى رأسهم جلالة الملكة.

ضحايا النصر

لذلك أشفقت على فريق مصر وسط هذه الألوف المؤلفة من أهل بوركينا فاسو، وتمنيت في لحظة من اللحظات هزيمة الفريق المصري حتى يتمكن أبناؤنا من العودة سالمين إلينا. خصوصًا وقد حدث في مباراة بالدور الأول بين بوركينا فاسو وفريق آخر أن نزل جمهور بوركينا فاسو إلى أرض الملعب، ليس بقصد ضرب الفريق المنافس، بل للاحتفال بالفوز، وكانت النتيجة أربعين جريحًا نقلوا إلى المستشفيات بخلاف عشرات آخرين فضلوا العودة إلى بيوتهم بجراحهم. وأكد هذه الصورة في ذهني حديث

زميل صحفي شاب سافر مع الفريق إلى بوركينا فاسو وعاد إلى القاهرة بعد انتهاء الدور الأول وهو الأستاذ جميل كراس بمجلة صباح الخير. وصف لي الزميل جميل مدى عشق شعب بوركينا فاسو لكرة القدم:

يصرخون في المدرجات ويرقصون ويغنون بدون توقف، ثم كيف نزلوا إلى أرض الملعب يحتضنون اللعيبة ويرفعونهم على الأعناق، وأن الذين جرحوا أصيبوا بسبب الزحام. وقلت في نفسي: إذا كان أربعون فردًا جرحوا بعد الفوز فكم يكون عددهم بعد الهزيمة؟!

أروع درس

وحان وقت المباراة مع مصر، ولم يبق على الحلو إلا دقة واحدة، إذا اجتازت بوركينا فاسو هذه العقبة صارت على القمة وتكون الحماسة غلبت الفن والقوة ضربت الحرفنة. ولكن الحكم الخواجا كان أشجع وأعقل من رأت عيني في الملاعب. ودارت المباراة وسط غناء الجمهور وصخبه، ثم جاء الهدف المصري نتيجة حركة هي خليط من الذكاء المصري والفهلوة البلدية، وصمت الملعب كله صمت القبور، ثم عادت المدرجات إلى الصخب والغناء عندما اشتد الهجوم البوركيني ولكن بلا نتيجة. ثم عاد إلى الصمت بعد الهدف الثاني وهو هدف ملعوب ومرسوم وهو ثمن تعاون ومناصفة بين حازم وحسام، ثم أطلق

الحكم صفارته الأخيرة. وأغلقت عيني قلقًا وإشفاقًا، ثم فتحتها لأجد ما جعلني أقف احترامًا لشعب بوركينا فاسو؛ لم يلق أحد منهم حجرًا ولا زجاجة ولا قشرة موز. تقبلت الجماهير النتيجة بهدوء وغادروا الملعب في نظام، وهذا هو الذي يجب أن نتعلمه من مشجعي الكورة الإفريقية، فالفوز وارد في مباريات الكورة والهزيمة أيضًا، والهزيمة في الكورة ليست مثل الهزيمة في الحرب، والفريق الآخر ليس عدوًّا لفريقنا ولكنه منافس له. هذا الدرس هو الذي يجب أن نتعلمه ونطبقه في الملاعب.

العمامة الألماني

ما أبعد الفرق بين سلوك الجمهور البوركيني وسلوك الجمهور المصري في مباراة فريقنا مع فريق زيمبابوي في تصفيات مونديال أمريكا. تقدم الفريق المنافس بهدف.. وعدوك.. عنيك ما تشوف إلا النور، زجاجات وقطع حجارة وقشر يوستفندي وبرتقال. وانتهز مدرب زيمبابوي الفرصة ولف رأسه بعمامة من الجبس وكأنه أصيب بقذيفة في معركة برلين.. وكانت النتيجة إلغاء المباراة وإعادتها على أرض فرنسا، وخرجنا من التصفيات بخيبة الأمل راكبة جمل. سلام مربع للسلوك المتحضر لشعب بوركينا فاسو وحظ أسعد في المباريات القادمة، ألف شكر للبطولة الإفريقية الحالية التي أحرجت الكبار وأخرجتهم.. وأثبتت أن المنتخب المصري من معدن البركان، والفرق المنافسة من معدن الفاسو.

الولد ولعة!

السؤال الذي يطرح نفسه بقوة بعد قرار النائب العام بالإفراج عن الولد الغلبان الصدمان «ولعة» الذي قدمته المباحث الجنائية للنيابة باعتباره بطل محاولة اغتيال نجم الإسكواش العالمي أحمد برادة، السؤال الذي يطرح نفسه: كم «ولعة» الآن خلف القضبان في السجون؟ وهل هناك طريقة لفرز نزلاء السجون لمعرفة الذين هم من صنف ولعة والفصل بينهم وبين الذين هم من صنف المجرمين؟ وحظ ولعة الطيب أنه اتهم في قضية نجم على المستوى العالمي، وحظه الطيب أيضًا أنه تم القبض عليه في عهد النائب العمومي الحالي، وهو رجل أثبتت كل التجارب السابقة أنه صاحب ضمير حي، وأنه مسئول ليس من الصنف الذي يهدف إلى تقفيل الدوسيهات بأي شكل، ولكنه يسعى إلى تحقيق العدالة والوصول إلى الحقيقة مهما كانت مُرة وثقيلة على النفس. وقصة الولد الصدمان الغلبان ولعة ليست جديدة ولكنها تكررت كثيرًا في الماضي، وتحدث الآن وستتكرر في المستقبل، ليس في مصر فقط، ولكن في معظم بلاد العالم!

ولعة القديم

أذكر حادثًا وقع في الأربعينيات من القرن العشرين وفي فترة الحرب العالمية الثانية.. كانت الشرطة قد ألقت القبض على مكوجي في الجيزة يدعى سيد بكر بتهمة سرقة شقة في الجيزة. وبعد ثلاثة أيام من القبض عليه اعترف المكوجي أمام مباحث الجيزة بسرقة الشقة وكرر اعترافه أمام النيابة ثم كرره أمام القاضي. وجاء حكم المحكمة بحبس سيد بكر لمدة عام. ولم يهتم بالحادث أحد إلا أفراد أسرة سيد بكر، والذين كانوا يتعاملون معه من خلال دكان المكوجي.. وبعد خمسة أشهر فوجئ الناس في الجيزة بالإفراج عن سيد بكر المكوجي. وأذكر أننا عندما سألناه عن السر في الإفراج عنه، طبع عدة قبلات على يده ظهرًا وبطنًا وحمد الله وأثنى على رسله وكتبه وقال: إن المباحث ألقت القبض بطريق الصدفة على اللص الحقيقي وضبطت المسروقات عنده، فقامت بتقديمه للمحكمة، فقضت المحكمة بحبسه وحكمت عليه، وفي نفس الوقت بالإفراج عن ولعة المكوجي.. أقصد سيد بكر المكوجي!

المفقود والمولود

أبرز ما يلفت النظر في قضية بكر المكوجي هو امتنانه الشديد لرجال المباحث وشكره العميق للقاضي الذي حكم بالإفراج

عنه، وإن كان قد أرجع هذه المعجزة إلى قدرة الله تعالى إكرامًا لعلاقة بكر القوية بأولياء الله الصالحين. لم يغضب بكر لأنه سجن بلا سبب، بل اعتبر نفسه من السعداء المحظوظين؛ لأن بسطاء الناس في مصر لديهم اعتقاد بأن في مسألة السجون.. الداخل مفقود والخارج مولود. وما دام القدر حكم عليه بالسجن، فالوضع الطبيعي أن يكون من المفقودين، ولكن الله القادر على كل شيء شاء له الخروج، فهو إذن من المولودين، وينبغي لمن كان في مثل وضعه أن يكون من الشاكرين. أما لماذا دخل؟ ولماذا خرج؟ باعتبار أن أقدارنا بيد السماء العالية يا نهر البنفسج.. على رأي زكريا الحجاوي.

ولعة الأيرلندي

والأكادة أن حادث ولعة يحدث كثيرًا في بلد كبريطانيا. منذ عدة سنوات أمر النائب العام البريطاني بالإفراج فورًا عن خمسة نزلاء من السجن بعد أن قضوا ١٧ عامًا خلف الأسوار. وكان رجال اسكوتلانديارد قد ألقوا القبض على الخمسة واتهموهم بنسف أحد البارات في مدينة برمنجهام. وهو الحادث الذي أسفر عن قتل وجرح العشرات. ولسوء حظ الرجال الخمسة فقد كانوا جميعًا من أيرلندا. وكانت المعركة محتدمة وقتئذ بين الحكومة البريطانية وثوار أيرلندا. وجمع بوليس اسكوتلانديارد الأدلة التي تكفي لإدانتهم، وهي الأدلة التي أقنعت المحكمة فحكمت

عليهم بالسجن مدى الحياة. ولكن من حسن حظ هؤلاء الخمسة أن رجلًا صاحب ضمير حي جلس بالصدفة على مقعد النائب العمومي البريطاني، وتصادف أنه تلقى مذكرة من أحد المحامين الذين قاموا بالدفاع عن المتهمين منذ البداية، وعلى الفور قرر النائب العمومي فتح الملفات القديمة. ودراسة القضية من جديد بعد مرور ١٧ عامًا.

قرار الإفراج

وقضى الرجل حوالي العام في دراسة القضية، واكتشف في النهاية مدى الظلم الذي وقع على الرجال الخمسة؛ فالأدلة التي قدمتها اسكوتلانديارد لا تقف على أقدام، واكتشف أيضًا أن هيئة المحكمة تعجلت النطق بالحكم لامتصاص غضب الجماهير، لأنها كانت قضية رأي عام، وضحايا بار برمنجهام كانوا كلهم من الأبرياء ولم يكن لهم ناقة ولا جمل في المعركة الدائرة بين ثوار أيرلندا والحكومة البريطانية. ولم يتردد النائب العمومي بعد اقتناعه بالنتيجة التي اكتشفها في التوقيع على قرار الإفراج عن السجناء الخمسة. وبالفعل أطلقوا سراحهم، ويوم الإفراج عنهم كان صعبًا وقفاته كيوم شنق زهران. خرج المساجين الخمسة بعد ١٧ سنة خلف الأسوار عقابًا لهم على جريمة لم يرتكبوها، وكان ذنبهم أنهم من أهل أيرلندا.. ويوم الإفراج عنهم أعد لهم البوليس منصة صغيرة وميكروفونًا وسمح لهم بالحديث علنًا وعلى رءوس

الأشهاد. وهاجم الرجال الخمسة البوليس وقالوا فيه أضعاف ما قال مالك في الخمر. واكتشف الذين شاهدوا المنظر أن بعضهم دخل السجن وهو في الثلاثين من عمره وخرج منه شيخًا لا يقوى على السير، وأن اثنين منهم انتقلا من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الشيخوخة دون أن يمرا بالشباب!

مغتصب وقاتل

وإذا كان حادث بار برمنجهام قد وقع في فترة السبعينيات فقد وقع حادث مماثل أواخر التسعينيات في لندن عندما أصدرت المحكمة العليا حكمًا بالإفراج عن سجين قضى في السجن ١٤ عامًا و ٨ أشهر وأسبوعًا واحدًا. وكان الرجل قد دخل السجن بتهمة قتل ممرضة بعد اغتصابها.. وحكمت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة. ولكن المحامية التي باشرت الدفاع عن المتهم منذ البداية لم تكف عن تقديم العرائض بين الحين والآخر تطالب فيها بإعادة النظر في القضية. وكانت آخر محاولاتها أمام المحكمة العليا التي قررت إعادة النظر في القضية. وتم هذا بالفعل. وجاء حكم المحكمة العليا بالإفراج عن السجين، وجاء في حيثيات الحكم أن الرجل الذي اتهم بجريمة الاغتصاب والقتل لم يكن له علاقة بهذه القضية في أي وقت.. وبالفعل انفتح باب السجن وخرج الرجل بعد أن قضى داخل الزنازين ١٤ عامًا و ٨ أشهر وأسبوعًا واحدًا!

الألوف تكفي

وهكذا نجد أن مئات من صنف ولعة في أنحاء العالم وآخر واحد من صنف ولعة غادر سجنه في لندن. وكلهم ولعة.. ولكن.. هناك فرق.. بينما يقضي ولعة المصري وقته في تقبيل يده ظهرًا وبطنًا لأن الله قدر ولطف ولأن العواقب جاءت سليمة، نجد ولعة الإنجليزي في حادث برمنجهام حصل على ٤ ملايين جنيه تعويضًا عن المدة التي قضاها في السجن. أما ولعة الإنجليزي الجديد الذي خرج من سجنه مؤخرًا، فقد سارع برفع دعوى يطالب فيها بتعويض قدره ١٠ ملايين جنيه. وسيحصل على نصفها بالتأكيد على الأقل. ما رأيكم لو أصدرنا تشريعًا يحمي حقوق المساجين من أمثال ولعة، ولا أطالب بصرف الملايين، يكفي صرف الألوف.. ويكون التعويض بقدر المدة التي قضاها كل ولعة خلف الأسوار. على الأقل لكي نفكر على مهل قبل توجيه الاتهام.

الحاج فرج الله.. الإنجليزي!

زمان عندما كنا تلاميذ في مدرسة الجيزة الابتدائية كان من عادتنا أن نمارس لعبة كرة القدم ونحن في الطريق إلى المدرسة نشوط بأحذيتنا أي شيء نصادفه في طريقنا، كوز صفيح، شقة بطيخ، قالب طوب، زلطة، نسخة قديمة من جريدة. وكانت كل جريدة تصدر في عدد كبير من الصفحات تكفي لفرش مسجد. وذات صباح والعبد لله منسجم ومبسوط بعد طبق كشري ممتاز، رحت أشق طريقي إلى المدرسة التي كانت تقع في الطرف الجنوبي من المدينة. ولأن الحذاء كان جديدًا ومتينًا، فقد رحت أشوط كل شيء في طريقي: مرة ببوز الحذاء ومرة ببطنه ومرة بجانبه. وفجأة رأيت في وسط الشارع شيئًا مستديرًا في حجم وشكل كرة التنس، وكان موضوعًا بشكل يغري «كابتن عظيم» مثلي بالتعامل معها على طريقة عبده نصحي وميمي درويش. ووقفت على مقربة من الشيء المستدير، ثم تمطعت وتفرست على طريقة فؤاد المهندس، وهُب على طريقة الكابتن لطيف. ولم أشعر بنفسي بعد ذلك. وأسرع بعض الجالسين

على قهوة صابر فنقلوني داخل القهوة ورش بعضهم الماء على وجهي، فلما عدت من الإغماء سمحوا للعبد لله بالانصراف، وعدت إلى المنزل أحجل كغراب نوحي عجره ولد عابث بحجر. وعندما رأتني الست الوالدة لطمت على وجهها ظنًا منها أن سيارة نقل داست على ضناها وعلى كبدها. وعلى الفور حملني المرحوم خالي وبعض الجيران وأسرعوا بي إلى الحارة التي تقع خلف حارتنا وأدخلوني منزلًا تعلو بابه يافطة كبيرة «الشفا من الله. الحاج فرج الله المجبراتي».

وخسرت الحذاء

وبعد قليل دخل الحجرة التي أرقد فيها على دكة خشبية رجل في حوالي الستين من عمره يضع على رأسه عمامة ويلف جسمه بعباءة سوداء من نفس النوع الذي يستخدمه عمد الريف في مصر. وخلع الرجل حذائي وراح يتحسس قدمي بأصابعه، ورحت أن الآخر أصرخ كلما ضغط بأصابعه، ثم توقف الرجل لحظة وقال في سعادة: الحمد لله ربنا قدر ولطف. واحتجت بعد ذلك إلى عدة جلسات تدليك بدهن معين من اختراع الرجل المجبراتي. وشفيت بعد ذلك وإن كنت قد خسرت حذائي إلى الأبد.

وقع هذا الحادث منذ ستين عامًا. وكانت هذه هي أول مرة أتعامل فيها مع طبيب «الدكتور» الحاج فرج الله الذي يرفع شعار: الشفاء من عند الله.

تقرير هيوستن

ولم أتعامل بعد ذلك مع أطباء من خريجي كلية طب الحاج فرج الله، لأن المستشفيات انتشرت بعد ذلك والدكاترة افتتحوا عيادات في كل مكان. لم أتصور في أي لحظة أنني سأذهب بنفسي وعلى قدمي إلى عيادة الحاج فرج الله بعد مرور هذا الزمن الطويل. الحاج فرج الله لم أجده في بولاق الدكرور أو منيل شيحة، ولكني وجدت الحاج فرج الله الإنجليزي.

وأصل الحكاية أنني أرسلت كل الأوراق التي تضم تفاصيل مرض ابني أكرم إلى مستشفى هيوستن، وحمل الأوراق الصديق الإنسان والوزير السابق أحمد نوح، فهو معتاد على مراجعة أطبائه في مستشفى هيوستن منذ سنوات. وعاد عمنا أحمد نوح بتقرير من المستشفى يحمل تشخيصًا لمرض أكرم.. وذهبت إلى لندن مع أكرم استعدادًا للسفر إلى أمريكا.

العيش والسكر

ولكن حدث أن اجتمعت ببعض الأطباء المصريين الذين يعيشون بالعاصمة البريطانية، منهم الدكتور فايز بطرس والدكتور يسري الجزار والدكتور محمد الوحش النجم الساطع في الوقت الحالي في لندن. واقترح الدكتور هشام العيسوي على العبد

لله أن أعرض أكرم على أحد المشتغلين بالطب وهو إنجليزي متخصص في تشخيص الأمراض بدقة وفي وصف الدواء الذي يصلح لعلاجها. لم يكن في عيادة الرجل إلا جهاز صناعة ألمانية، يمسك المريض بجزء خارج من الجهاز يشبه الفتيس، وبعد فترة من الضغط على الأزرار يعطي الرجل الوصفة المطلوبة للقضاء على مرضه الذي عذبه طويلًا، وصفة بسيطة وغريبة. ممنوع أكل الخبز وممنوع استخدام السكر، لا شاي ولا مشروبات ولا ليمونادة ولا بغاشة ولا بلح ولا.. ولا.. ولا.. وداعًا للسكر والعيش.

دكتور الحقني

وسلمني الرجل إيصالًا بالأجر الذي يتقاضاه، وعندما ألقيت نظرة على الإيصال أدركت أنه ليس طبيبًا وأنه ليس من خريجي كلية الطب، وأن الجهاز الذي شاهدته في عيادته هو كل مواهبه ومؤهلاته. وزيادة في معرفة الحقيقة أجريت اتصالًا بالدكتور هشام العيسوي وقلت له: هواجسي بأن الرجل الذي عرضنا عليه أكرم ليس طبيبًا وكانت صدمتي شديدة عندما أكد الدكتور العيسوي هواجسي وظنوني.

يا للهول.. على رأي عمنا يوسف وهبي. ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، وبعد عمليات نقل الكبد ونقل القلب وزرع الرئتين واستنساخ النعجة دوللي، بعد هذا كله أعرض

ابني الوحيد الذي عرضته من قبل على أطباء مايو كلينيك في أمريكا ولندن كلينيك في لندن، أعرضه على هذا الدجال فرج الله الإنجليزي. ورد الدكتور العيسوي في هدوء: الإنجليز عندهم مثل ممتاز. فلننتظر وسنرى. ثم قال لي في هدوء أكثر: كلمني بعد أسبوع.

وتحققت المعجزة

ولكن.. ما هو مرض أكرم الذي دوخني دوخة يني؟ وجعلني أطوف على كل عيادات الصدر والباطنية والأمراض النفسية ثم ألجأني في النهاية إلى زيارة الحاج فرج الله الإنجليزي. كان في البداية مرضًا صدريًّا أفقده صوته وأدخله العناية المركزة عدة مرات، ثم خلّصه الله من هذا المرض بواسطة إخصائي أمراض الصدر العبقري دكتور سيترون بمستشفى برومبتون. ثم خلصه الله من بعض الأمراض الباطنة على يد أطباء مايو كلينيك. ولم يبق من مخلفات الحرب اللعينة بين أكرم والمرض إلا بعض أعراض بسيطة، كلما تناول طعامًا شعر بضيق في التنفس ودوخة، وينتهي الأمر بتفريغ ما في معدته من طعام. ولأنني كالغريق الذي يتعلق بقشة، فقد قررت أن أنتظر وأرى كما نصحني الدكتور العيسوي. وبالفعل انتظرت وعدت للاتصال بالدكتور العيسوي لأشكره.. صحيح.. الشفا من الله.. وليس من أي أحد آخر. عندما كف أكرم عن أكل الخبز، وعندما ابتعد تمامًا بشكل حاسم عن السكر، عاد

شخصًا سويًّا. لم يعد يشعر بعد الآن بضيق في التنفس، ولم يعد يشعر بالدوخة، والزن الذي كان ينتابه في رأسه ويشبه نباح كلب مسعور بعد تناول وجبة الطعام اختفى بأمر ربي واستقر الطعام في مكانه فلم يعد أكرم يشعر برغبة في الترجيع. وقلت للدكتور العيسوي: يا سبحان الله.. نجح الحاج فرج الله في علاج ما فشل فيه أعظم الأطباء. كان رد الدكتور العيسوي: كل شيء بإذن ربي. وكان تعليق الدكتور محمد الوحش: هذا شيء لم نتعلمه في الكتب الطبية ولا من خلال الممارسة العملية. أما تعليق الدكتور فايز بطرس فكان على النحو التالي.. قال ضاحكًا: يا محمود.. أكرم كما سبق أن قلت لك ليس مريضًا وهذا الرجل صاحب الجهاز ليس طبيبًا. ولذلك ليس غريبًا أن ينجح الذي ليس طبيبًا مع الذي ليس مريضًا.

وبعد.. ما رأى القراء وما رأى الأطباء. وعلى كل حال العبد الله ألغى رحلته مع أكرم إلى مستشفى هيوستن اكتفاء بالتردد على عيادة الحاج فرج الله الإنجليزي وإيمانًا بنظرية الشفاء من عند الله!

منظمة مشمش

العبد لله ضد حبس الصحفيين لألف سبب. أولًا لأن العبد لله صحفي ومن مصلحتي إلغاء عقوبة الحبس لأبناء هذه المهنة، وثانيًا لأني جربت السجن، وأستطيع أن أقول إن السجن أسوأ حادث يقع لإنسان، ولكنني في الوقت نفسه أرفض بشدة أن يتحول الصحفي إلى سلطة اتهام يوزع صكوك الغفران على بعض الناس ويتهم آخرين بالخيانة وبيع الأوطان.. لأن اتهام إنسان بالخيانة دون وجه حق هو دعوة صريحة لقتله.. لأن من حق أي مواطن يكتشف خيانة مواطن آخر أن يطلق النار على رأسه أو يرشق مطواة قرن غزال بين ضلوعه. ثم من هو الذي من حقه اتهام إنسان آخر بالخيانة دون وجه حق؟ والجريمة.. جريمة الصحفي تكون أكبر عندما يكون الاتهام موجهًا لواحد من خيار الناس، وبالنسبة ليوسف والي بالذات.. فالرجل ليس من آحاد الناس، إنه نائب رئيس الوزراء وهو أيضًا سكرتير عام الحزب الحاكم.

وإذا كان يوسف والي خائنًا، فالواجب يفرض علينا محاكمة

الجميع، فكيف سمح النظام لأحد رموزه بارتكاب جريمة الخيانة إلا إذا كان الجميع خونة بلا استثناء؟ فهل من حق الصحفي أن يتحول إلى مدع عام يوزع الاتهامات على الجميع دون سند أو دليل؟ واتهام يوسف والي بالخيانة تردد على صفحات جريدة الشعب وهي في نفس الوقت لسان حال حزب العمل، وهو حزب معارض ومن أحزاب الأقلية، ويقوده رجل من أشرف الرجال الذين يعملون في العمل السياسي والعمل الوطني، وهو المهندس إبراهيم شكري. فهل السيد إبراهيم شكري يوافق على أن تتحول جريدته إلى محكمة تفتيش؟ فهذا خائن وهذا كافر وهذا زنديق. وذكرني موقف جريدة الشعب بسلوك تنظيم شيوعي قديم، كان الشيوعيون يطلقون عليه من باب السخرية «تنظيم مشمش»، وكان عدد الأعضاء في تنظيم مشمش لا يزيدون على ثلاثين شخصًا، وكان عدد المعتقلين منهم لا يزيد على ٧ أشخاص، مع أن المعتقل كان يوجد به أكثر من ألفي شخص ينتمون إلى تنظيمات حدتو والراية وعمال وفلاحين وطليعة الشيوعيين. ولكني لاحظت أن الأعضاء السبعة من تنظيم مشمش لا يتكلمون مع أي شخص آخر، كانوا أحيانًا يتبادلون الحديث مع العبد لله، ربما لأنهم كانوا متأكدين من أنني لست منضمًّا لأي تنظيم. طيب.. ولماذا لا تتحدثون مع الشيوعيين الآخرين؟ هكذا سألت أحدهم مرة، وكانت دهشتي عظيمة عندما جاءني الجواب.. قال عضو مشمش لا فض فوه ومات حاسدوه: لأن هؤلاء جميعًا بوليس. كل هؤلاء من المثقفين والأدباء والصحفيين والعمال بوليس ومهمتهم

الوحيدة في الحياة تعقب جماعة مشمش، وإرسال التقارير عن تحركاتهم ولفتاتهم وهمساتهم إلى المباحث المصرية والمباحث الفيدرالية الأمريكية والأسطول السادس وحلف الأطلنطي. والغريب أن الجواب جاءني من زعيم مشمش بالإيجاب. قد لا تصدقني، ولكنها الحقيقة التي لا ينكرها ولا ينفيها إلا المتعاملون مع البوليس.

وجريدة الشعب تقوم في الوقت الحاضر بدور تنظيم مشمش. فهي لسان حال حزب العمل كما قلت، وهو حزب معارض ومن الأقلية، وجريدة الشعب توزع عدة ألوف من النسخ في كل عدد وفي شعب يزيد عدد سكانه على ٦٠ مليون نسمة. فهل من حق من كان في مثل هذا الوضع أن يتهم الناس بالخيانة والعمالة، وأن يصدر ضدهم حكمًا لا يقبل المعارضة ولا استثناء؟ إن النائب العام هو الوحيد الذي من حقه توجيه مثل هذا الاتهام. ولكن حتى مثل هذا الاتهام الصادر من النائب العام يبقى مجرد اتهام حتى تصدر المحكمة حكمها وبعد أن تمنح الفرصة للمتهم أن يدافع عن نفسه. فهل منحت جريدة الشعب الفرصة للدكتور يوسف والي لكي يدافع عن نفسه؟ أم اكتفت بإصدار حكمها على الرجل بالخيانة؟ على أساس أنها مسألة لا تحتاج إلى دليل أو إثبات. وأقول لكم بصراحة: العبد لله لم يكن منزعجًا عندما اتهمت جريدة الشعب السيد حسن الألفي وزير الداخلية السابق بالتربح واستغلال النفوذ. لأن كل موظف عام يمارس ما يمكن أن يجعله عرضة لتوجيه مثل هذا الاتهام إليه. فإن ثبت صحة الاتهام،

فللجريدة أجران، لأنها اجتهدت وأصابت. أما إذا كان اجتهادها خاطئًا، فالعقوبة في الدول التي اخترعت الصحافة هي الغرامة. وهي غرامة تجعل من كل صحفي أكثر حذرًا من السنجاب، وأكثر نومًا من الكسعى، لأنها غرامة قد تؤدي إلى إفلاس الجريدة وإغلاقها بالضبة والمفتاح. هذا في حالة اتهام موظف عام بالرشوة والتربح. ولكن الاتهام بالخيانة شيء آخر. فليس هناك علاج للخيانة إلا بتصفيته، وليس من حق الخائن أن يعيش بيننا يأكل الطعام ويشرب الشراب ويمشي بين الناس في الأسواق. طيب.. كيف الخروج من هذا المأزق الذي نواجهه الآن؟ مع التسليم بأن الصحفيين الذين صدرت ضدهم أحكام بالسجن ارتكبوا جريمة في حق مواطن شريف. هو يوسف والي. لا بد من التسليم بهذه الحقيقة مع حرصنا في الوقت نفسه على عدم سجن الصحفيين في قضية نشر. وفي رأي العبد لله أن نشر جريدة الشعب اعتذارًا للدكتور يوسف والي بأقلام هؤلاء الزملاء الذين اتهموه، ليس على صفحات عدد واحد، ولكن على صفحات ٣ أعداد متتالية، وأن يكون الاعتذار وافيًا وكافيًا لإرضاء الرجل الذي اتهموه بالخيانة. وإذا حدث هذا فصافي يا لبن.

والعبد لله سيكون أول من يتوجه للدكتور يوسف والي أناشده ضرورة القبول بالاعتذار وقبوله العفو عن هؤلاء الذين اتهموه.. وليكن هذا الموقف درسًا لكل الصحفيين. فاتهام الناس بالخيانة ليس بالأمر الهين. ولابد أن يكون للمجلس الأعلى للصحافة دور في وقف مثل هذه الحملات إذا تجاوزت كل الحدود، لأن دور

المجلس الأعلى للصحافة الآن يشبه دور قوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان، مهمتها هي مشاهدة طائرات إسرائيل وهي تقصف قرى الجنوب اللبناني ومتابعة مدافع اليهود وهي تدك أحياء مدينة صور وقرى إقليم التفاح.. ثم تقرير بما حدث وبدون تعليق! مع أن الواجب كان يقتضي أن يتدخل المجلس لفض هذه المعركة في بدايتها وقبل أن تتطور، خصوصًا وعلى رأس المجلس رجل فاضل هو الدكتور مصطفى كمال حلمي، وهو على صلة طيبة بالجميع. ولكن الذي حدث أن المجلس صمت والجميع وقفوا يتفرجون حتى خيل للبعض أن بعض أجنحة في السلطة تقف وراء الحملة بالتحريض والتشجيع. المرة الوحيدة التي رأيت فيها محاولة لوقف هذا السلوك الصحفي المرفوض جاءت من جانب الزميل مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين السابق، وعندما استهجن بشدة تصرفات جريدة الشعب باتهام أحد رموز النظام بالخيانة. وقد حدث هذا في مواجهة الزميل مجدي أحمد حسين رئيس تحرير الجريدة. كان من واجب المجلس الأعلى انتهاز الفرصة في تلك اللحظة وبحث الأمر قبل أن يتطور إلى الحد الذي انتهى إليه.

وبعد.. فإن الاقتراح الذي عرضه العبد لله في السطور السابقة هو حل عملي للخروج من هذه الورطة، أقصد خروجنا كصحفيين من الورطة التي وضعنا أنفسنا فيها.

اعتذار جريدة الشعب للمواطن الفاضل المتهم بالخيانة على

مدى أشهر، اعتذار على صفحات ثلاثة أعداد وبأقلام السادة الزملاء الذين اتهموا الرجل الفاضل بهذه التهمة النكراء، وبعدها يكون من حقنا أن نطلب بوقف تنفيذ الحكم وعدم تنفيذ عقوبة السجن في أي قضية نشر قادمة. أما قبل نشر مثل هذا الاعتذار فنكون كمن يطلب للسادة الصحفيين امتيازًا كامتياز السادة المستعمرين أيام زمان. وهو وضع لا أحد يقبله ولا أحد يرضاه. ويا حضرات الزملاء الصحفيين.. اتهموا الناس بأي تهمة إلا الخيانة، فالخيانة ليست تهمة، إنها حكم بالإعدام ودعوة لكل الناس لتنفيذه في أي وقت وفي أي مكان.

ومن ينفذه دخل الجنة وعلى رأسه قنديل.. وقيل قنديلان!

شهر الأحزان!

أشد المواقف تعذيبًا للنفس هو الوقوف في طوابير الانتظار، والطوابير التي أقصدها ليست طابور المسافرين بالطائرة إلى أوروبا أو طابور الجمعية الاستهلاكية للحصول على الحصة المقررة من اللحمة والفراخ، ولكن الطابور الذي أقصده هو طابور الحياة نفسها، الطابور الذي يصطف فيه البشر انتظارًا لطلب الاستدعاء الذي فرضته نظرية الحياة على صنف البني آدمين. نظرية الشروق والغروب والبداية والنهاية، والميلاد والموت.

ومع أننا جميعًا منتظرون في الطابور منذ لحظة الميلاد إلا أن الناس لأنهم آخر طمع وآخر جشع ينسون هذه الحقيقة أو يحاولون نسيانها، ولكي تستمر الحياة فلابد من الصراع من أجلها. البعض يصارع من أجل الثروة، والبعض يصارع من أجل الثورة، ناس تسعى على أكل عيشها وناس تسعى من أجل المليون الرابع. وفي ذروة الصبا والشباب ينسى الجميع أنهم في الطابور وأنهم في انتظار طلبات الاستدعاء. ويتصور بعض الحلنجية أثناء السابق أن

موت الآخرين هو نتيجة فشل أو خيبة أو سوء حظ، كراكب الطائرة الذي يمسك في يده جريدةً الخبر الرئيسي فيها عن سقوط طائرة وموت جميع ركابها، وبالرغم من ذلك يصعد السلم ويستقر على مقعده ويربط الحزام، على أساس أن ما جرى للآخرين لن يجري عليه، ليه؟ لأنه حِدق وعينه مفتوحة وحظه بمب وصحته أيضًا ورزقه في رجليه وسيعيش حتى النهاية وسيشرف بنفسه على دفن الآخرين!

الوظيفة هي الحياة

ولكن هذا الغرور الوقح يبدأ في التعامل مع الحياة بتواضع بعد سن الستين. فالستون بمثابة إنذار جاد جدًّا خصوصًا للسادة الموظفين! سن الستين هي نهاية الحياة المعتادة التي تبدأ بالخروج من البيت والوصول إلى المكتب وشرب القهوة وقراءة الجريدة ثم دخول المتعاملين.. المرتعش والمتخلف والمحتاج والمتوسل والشريف والكذاب والنصاب وصاحب الفلوس وصاحب النفوذ، ثم فترة المساء على القهوة وشرب الشيشة ومسح الجزمة وشراء ورقة اليانصيب، ثم غدًا يوم آخر ثم يوم آخر ثم يوم آخر وإلى سن الستين، وبعدها يفقد الموظف وظيفته وغالبًا يفقد حياته في العام التالي مباشرة، فإذا كان الموظف حسن الحظ ففي العام الذي يليه!

ولذلك يعيش الحكام والمهنيون والفنانون والأدباء ورجال الأعمال والصياع وقتًا أطول من زمن الموظف، ولكن بعد السبعين يصبح الشعور بالقلق والانتظار في الطابور أصعب وأكثر مرارة، فهذا وقت الاستدعاء. الخطابات تم تحريرها، ولكن البريد أحيانًا يُسرع وأحيانًا يتلكأ. والعبد لله في هذه المرحلة من الحياة الآن، أحيانًا أنسى وأنهمك في الحياة وكأنني سأعيش أبدًا، وأتفق على مشروعات قد تستغرق عشرة أعوام، ثم تنهال على رأسي ضربات شديدة موجعة وموحية أيضًا؛ ضربة من هنا وضربة من هناك، يصل طلب الاستدعاء فجأة إلى زميل أو صديق من جيل العبد لله. أحيانًا تكون الصلة بعيدة فلا أشعر بالوجع، وأحيانًا تكون الصلة قريبة فأشعر أن الذي استدعوه هو العبد لله وسوابقي في الحياة تضاعف هذا الإحساس. ذات يوم بعيد جاءوا بكشف للإفراج عن بعض المعتقلين من معتقل الواحات، وتمنيت على الله أن يكون اسمي أول الأسماء، ثم راحوا يتلون الأسماء، اسم ورا اسم وقلبي يهبط مع كل اسم ينطقون به حتى خرج قلبي من كعب قدمي، وقبل أن يطووا الورقة نطقوا اسم العبد لله، ولكني لم أسمعه لأني كنت قد فقدت الحواس الخمس. مرة أخرى جاءوا بكشف يضم عدة أسماء مطلوب ترحيلهم من معتقل كلية الشرطة إلى سجن القلعة، ولحكمة يعلمها الله كان اسمي هو أول الأسماء. المسائل ماشية

بالعكس مع العبد لله لسبب لا أدريه. عندما أطلب التأجيل أجد نفسي في المقدمة، وعندما أطلب التقديم أجد نفسي في آخر الصف!

جلال وشوقي

وشهر مارس بالذات وبالنسبة للعبد لله هو شهر الأحزان، ومارس الجاري الذي نحن فيه وجه لي عدة ضربات موجعة ولا ضربات هولفيلد في رأس تايسون.. وصلت طلبات الاستدعاء إلى اثنين من رفاق الرحلة، اثنان من جيل العبد لله: بلبل الإذاعة جلال معوض، والشاعر الغنائي والكاتب المسرحي عبد الرحمن شوقي.

وجلال معوض بالذات كان علامة على عصره، وكان عقائديًّا بدون شعارات وبدون أيدلوجيات ولم يرتكب جريمة قتل الآخرين على الهوية، وظل إلى آخر لحظة في حياته صديقًا للجميع، وكان من بين أصدقائه أمراء وشعراء وفنانون ومطربون ونشالون ورجال أعمال وثوار وصياع على باب الكريم.. كان كالنسمة الطرية في ليلة صيف حارة، ومثل كوب ماء مثلج في صحراء الواحات. ولم يتنازل عن مبادئه قط ولم يتاجر فيها أيضًا، وكما أراح الناس في حياته أراحهم في موته. لم يتعذب ولم يعذب أحدًا، وذهب الصديق الطيب جلال معوض فجأة، وحرمتني الظروف الصعبة من أن ألقي عليه نظرة الوداع.

عصابات النقد

أما عبد الرحمن شوقي الموهوب المهذب فهو صديقي قبل أن يكون صهري، وهو كاتب ممتاز ومنحاز للجماهير، ولكنه غير منتم، وعصابات النقد في بلادنا مثل عصابات دلنجر وآل كابوني تفسح الطريق للشلة بالرصاص ولا تهتم بمن يلقى مصرعه، وهم يفتحون السكة إلى البنك أو إلى المطبعة.. لا فرق. ولأن عبد الرحمن شوقي ينتمي إلى جيل الستينيات، فقد اكتشف فجأة أنه لم يعد يطرب أحدا في التسعينيات. في المسرح يبحثون عن الراقصة أولا ثم عن النص بعد ذلك. فإذا توافرت الراقصة فلا داعي للنص على الإطلاق، وفي التليفزيون يبحثون أولًا عن المنتج المنفذ ثم عن النجوم ثم بعد ذلك أي ورق وأي مؤلف.. ولولا أسامة أنور عكاشة في التليفزيون ووحيد حامد في السينما، ولولا عادل إمام ومحمد صبحي في المسرح لقلنا إن الفن المصري صار إلى زوال، وسقط عبد الرحمن شوقي مريضًا ثم رحل عن دنيانا بعد صراع طويل مع المرض اللعين. والعذاب الذي عاناه عبد الرحمن شوقي في الأسابيع الأخيرة جعلني أسأل الله أن تكون النهاية سريعة وخاطفة كلمح البصر.

رحم الله جيل العبد لله الذين وصلتهم خطابات الاستدعاء وفرضوا على العبد لله الانتظار مرتعشًا في الصف الطويل انتظارًا لساعي البريد، الذي أرجو أن يتأخر. فبالرغم من كل شيء وأي

شيء الحياة أحسن وأفضل حتى في أحط درجاتها وفي أحقر مستوياتها.. وهو المعنى الذي أبرزه الكاتب الأمريكي «أدوين شو» (الموتى يرفضون الدفن) حيث رفض بعض الجنود الدفن بعد أن قتلهم رصاص العداء، وكان من بينهم عسكري صعلوك شديد الفقر شديد الغلب كثير المشاكل، ونهره الشاويش وهو على باب القبر.. حتى أنت ترفض الدفن، لقد كانت حياتك المدنية قطعة من العذاب. كنت صعلوكًا لا تجد ما تأكله، وكنت تشرب ما يتبقى في أكواب الشاربين، وإذا أكلت فمن صناديق القمامة مع القطط والكلاب، وكانت أعقاب السجاير هي كل ما تستطيع الحصول عليه، والآن ترفض الدفن وتريد العودة إلى تلك الحياة. هل تستطيع أن تقنعني بسبب واحد يدفعك إلى التمسك بالحياة؟ ورد الجندي الذي كان صعلوكًا قبل الجندية: لقد كانت حياتي وأنا أحبها. هذا هو الكلام المفيد.. لقد كانت حياتي وأنا أحبها. وإذا كان عمنا أبو العلاء المعري قد هاجم هذا الصنف من الناس قائلًا:

تعب كلها الحياة فما
أعجب إلا من راغب في ازدياد

وكلما قرأت هذا البيت شعرت أن بيني وبين أبي العلاء ثأرًا لا يهدأ، فهو لا يقصد أحدًا بهذا البيت إلا العبد لله. فأنا الراغب في ازدياد رغم التعب ورغم النكد ورغم مؤتمر عبد العزيز البابطين

وندوات تليفزيون دبي الدينية بقيادة مستشار شركات الريان والدكتور أشرف السعد. وبالرغم من هذه المنغصات إلا أنها حياتي وأنا أحبها، اللهم أرجو أن تكون ساعة استجابة اللهم إنك على كل شيء قدير!

الشغب والشغبوب!

سألني أحدهم: هل صحيح هناك فرق بين الشغب والشغب؟ الشغب الأولى بتشديد الشين وفتحها وفتح الغين، والشغب الثانية بتشديد الشين وتسكين الغين.. وهل صحيح أن معنى الأولى يختلف كثيرًا عن معنى الثانية؟ فأجيب الأخ السائل: نعم هناك فرق بالتأكيد، والذي وضع يده على هذه الحقيقة هو العالم المصري ابن منظور في قاموسه الرائع لسان العرب، وهو عمدة القواميس العربية في كل العصور. عمنا ابن منظور حدد الشّغب بأنه تمرد العامة أو الحرافيش أو الدهماء يعني كده زي الهبة التي حدثت في زمن الرئيس أنور السادات. والتي وصفها السادات بأنها هبة الحرامية. أما الشغب بتسكين الغين فهو تمرد الجند، شيء كده يشبه ما حدث في زائير في عهد المأسوف على شيخوخته الجنرال سيسي سيكو.

حظ ابن منظور

وإذا طبقنا نظرية عمنا ابن منظور على ما يدور حولنا في أنحاء العالم فسنكتشف أن ما يجري في شوارع ماليزيا هو من نوع الشغب بفتح الغين، وما يجري في شيلي على يد بينو شيه هو من نوع الشغب بتسكين الغين. ولكن عمنا ابن منظور لم يكن محظوظًا لأن أيامه لم تطل على الأرض حتى يشهد المستجدات الجديدة في فن المشاغبة. فما يحدث الآن في شوارع إندونيسيا هو سكلانس من الشغب بفتح الغين وتسكينها وهو في حاجة إلى نحت كلمة جديدة لوصف الحالة إياها، لقد حدث التحام وانسجام بين المشاغبين من العامة والمشاغبين من الجند، وأهدى الطلبة باقات الزهور للجنود الذين يسددون فوهات المدافع إلى صدورهم ثم تصافح الجميع وأصبح الجانبان سمنًا على عسل.

لسان ابن سعدون

وهذا الموقف الجديد والغريب معًا لم يرد له ذكر على صفحات لسان العرب للعلامة المصري ابن منظور. ولكن مصر على كل حال ولَّادة، وباعتبار العبد لله خليفة لعمنا ابن منظور، فمن واجبي أن أضع تفسيرًا لهذا التغيير الذي طرأ على المشاغبة وجرى تطبيقه عمليًّا على أرض إندونيسيا، ويرى العبد لله أن أدق تعريف لهذا الذي يجري في شوارع إندونيسيا هو الشغب بتشديد الشين وضمها

وضم الغين أيضًا فيقال: وقع شُغُب في المكان الفلاني، فيفهم القارئ أن التمرد شمل جميع المشاغبين.. العامة والقوات الخاصة أيضًا أهل الشارع وأهل السلطة. وأعد حضراتكم بمزيد من التفسير في كتابي القادم «لسان» للعلامة ابن سعدون الذي هو حضرتنا والذي هو أيضًا على وزن ابن منظور!

كلهم عرب

أما لماذا كتابنا الجديد سيكون بعنوان لسان فقط دون ذكر العرب؟ لأن كلمة لسان تغني عن كل شيء وسيفهم القارئ الذكي أن كلمة لسان فقط تعني العرب أيضًا. بعد أن اتضح أن العرب هم الجنس الوحيد الملسن على كوكب الأرض. الدليل على ذلك هو إعلان طارق عزيز أن طرد المفتشين الخواجات من العراق لا رجعة فيه، وأن الضربة الأمريكية المرتقبة لا تخيف أحدًا، وأن المرشال عزيز سيخوض الحرب إذا فرضت عليه. ثم عاد المارشال نفسه بعد أيام قليلة ليعلن أن البعض أساء فهم تصريحاته، وأنه كان يقصد أن المفتشين هم إخوان العراقيين وأنهم يستطيعون الدخول والخروج في أي وقت، لأن حدود العراق مفتوحة لكل الإخوة العرب، وهؤلاء المفتشون صاروا عربًا بعد أن أمضوا في العراق العربية ٨ سنوات كاملة والقانون الإنجليزي مثلًا يعطي الجنسية البريطانية لمن يقضي على أرض الجزر البريطانية ٤ سنوات فقط.

البندق والبنادق

والسلطة الفلسطينية أيضًا أعلنت في ساعة تجلي أن الفلسطينيين سيشقون طريقهم نحو الدولة وعلى طريق القدس بالبنادق والخنادق، ثم عادت وأعلنت بعد ٢٤ ساعة فقط أنه حدث سوء فهم للكلمات التي صدرت عن السلطة وأنها كانت تقصد أنها ستشق طريقها عن طريق البندق والفندق، البندق بمناسبة شهر رمضان المبارك، والفندق حيث تجتمع الوفود للمناقشة والمناغشة والملاعبة والمراعية، يعني تراعيني قيراط أراعيك قيراطين، تعطيني ريق حلو أعطيك مستوطنة.

ولكن يبدو أننا ابتعدنا كثيرًا عن بحثنا الرئيسي. كنا نتكلم عن الشَّغْب والشَّغَب والشُّغُب فاستغرقنا الحديث وأخذنا إلى مكان آخر.

هناك نوع جديد من الشغب لم يكن له وجود في دنيا الناس من قبل وهو شغب الحكومة، وهو الشغب الذي تشهده المنكوبة أفغانستان. لأن حكومة طالبان هي المصدر الأساسي للشغب، إنها حكومة مشاغبة ومنشغبة ومشغوبة أيضًا، إنها حكومة على رأس واجباتها تشجيع الإرهاب وحماية الإرهابيين، والزي الرسمي للحكومة هو زي الإرهاب ولا بأس إذا أطلقنا عليها وصف شغبوب وعلى وزن شيبوب شقيق عنتر بن شداد.

وأبرز صفات شيبوب الذي أجاد تمثيله في السينما المرحوم سعيد أبو بكر أنه كان شديد الحماس للشر ويحرص عليه ويفرح لأي مصيبة ويصفق لأي كارثة ويحمس الآخرين للقتال ثم يطلق ساقيه للريح عندما يبدأ المقاتلون في استخراج السلاح. إن الحكومة الشغبوبية التي تحكم أفغانستان هي أول وآخر حكومة من نوعها على ظهر الأرض ولا أعتقد أنها ستستمر، وليس هناك احتمال لتكرارها في المستقبل، ولذلك لا أرى داعيًا لإهدار الورق في شرح كلمة شغبوب في كتابي الجديد «لسان»، ويمكن الاكتفاء ببثها على الإنترنت، ويمكن عقد ندوة ساخنة للنقاش حولها في إحدى القنوات المتخصصة في الشغبية فيتحاور حولها ثلاثة أو أربعة، بشرط أن تنشب المعركة حول الكلمة منذ أول لحظة من الندوة، فلا تفهم شيئًا ولا تميز شيئًا سوى بعض الشتائم وبعض اللعنات. وتكون هذه الندوة هي التفسير الحقيقي لكلمة شغبوب!

الاعتذار المناسب!

هل تذكرون فيلم جسر على نهر كواي؟ وهل شاهدتم على الشاشة مأساة العساكر البريطانيين الذين وقعوا في أسر الجيش الياباني؟ عساكر أشبه بضحايا الجوع في إفريقيا. مجرد هياكل عظمية، الأعشاب طعامهم والسراويل لباسهم، وتسليتهم الوحيدة هي العمل تحت أسوأ الظروف في بناء الجسر الذي كان الهدف من إنشائه سرعة وصول الأسلحة للجنود اليابانيين الذين يحاربون الجيش البريطاني في الأحراش البعيدة، ومن منا لم يهتز لمنظر الجنرال الإنجليزي الذي حبسوه في حفرة تحت الأرض وفوق رأسه لوح من الصفيح تحت شمس حارقة بلغت الخمسين درجة مئوية. حدث هذا منذ ٥٥ عامًا بالتحديد، مئات من الجنود البريطانيين ماتوا تحت وطأة التعذيب، والذين عاشوا منهم حسدوا الذين انتقلوا إلى رحمة الله، والجميع عانوا من وحشية الكولونيل الياباني الذي كان يدير معسكر الأسرى داخل إحدى الغابات على ضفة نهر كواي. وعندما طالبه الجنرال الإنجليزي بتطبيق اتفاقية جنيف في معاملة

الأسرى، أمسك الكولونيل الياباني بالاتفاقية وطوّح بها بعيدًا وتساءل في دهشة: وأين هي جنيف هذه، هل هي في مكان ما داخل الغابات؟ ثم بكى في النهاية واعتذر للجنرال الإنجليزي بعد أن أتم بناء الجسر. وقال له اعذرني.. لقد كنت بين نارين. إما أن أمارس القتل في الأسرى أو يقتلني الجنرالات اليابانيون الذين يقيمون في طوكيو ويعيشون هناك في التبات والنبات!

عودة الموتى

هذا الحادث الرهيب الذي وقع على ضفة نهر كواي بين تايلاند وبورما، والذي كان أبطاله من الجنود البريطانيين تحولوا إلى أشباح بفعل الجوع والعمل الشاق والتعذيب. هؤلاء الجنود الذين كان يجب أن يغادروا بريطانيا منذ زمن بعيد بعثوا أحياء ورأيتهم بعيني رأسي أحياء في شوارع لندن هذا الأسبوع. أما المناسبة فهي زيارة إمبراطور اليابان لبريطانيا. بدعوة من الملكة، وبالرغم من استقبال الملكة له استقبالًا رسميًّا، وبالرغم من الدعوة التي وجهها رئيس الوزراء لشعبه بمنح الإمبراطور استقبالًا حارًّا، إلا أن العساكر البريطانيين الذين أسرهم الجيش الياباني وخصوصًا في المعسكر الذي حشدوا فيه العساكر لبناء جسر على نهر كواي. مئات من البريطانيين الأسرى احتشدوا على جانبي الطريق الذي اخترقه موكب الإمبراطور في عربة مكشوفة إلى جوار الملكة. وقد رفعوا لافتات تحمل شعارات معادية للإمبراطور بينما تصاعدت هتافاتهم

بسقوط اليابان، وبعضها يطالب الإمبراطور بالاعتذار عن الإهانات التي لحقت بأسرى الحرب على يد الجيش الياباني، وبعضهم قام بإحراق العلم الياباني أمام العربة الملكية التي أقلت الملكة وضيفها الإمبراطور!

وجبات الدود

المضحك في المؤتمر أن هؤلاء العساكر الذين اهتزت ضمائرنا لمأساتهم وأصبحوا الآن من العجائز المحطمين، وأصغرهم على أبواب الثمانين، وبعضهم يزحف بخطوات سريعة نحو المائة، بينهم جنرالات وكولونيلات وكباتن وعساكر، كلهم يعلقون على صدورهم أطنانًا من الحديد هي أوسمة ونياشين حصلوا عليها بسبب شجاعتهم وبسالتهم في ميدان القتال. بعضهم يحجل وبعضهم يعرج وبعضهم يتوكأ على عصاه وقلة قليلة منهم يندفعون للأمام على مقاعد تسير بالكهرباء. وبالرغم من العضلات الميتة والعيون التي انطفأ فيها النور والأيدي المرتعشة، إلا أن نار الانتقام لم تخمد والرغبة في الثأر لم تفتر، أحدهم تجاوز الثمانين من العمر وكان برتبة كابتن قال في حوار تليفزيوني جرى معه في الشارع: اتهموني بإثارة الشغب وحبسوني في الحفرة وبعد يوم كامل شعرت بالجوع يفري أمعائي، وعندما طلبت طعامًا أتوني بطبق من دود الأرض كان حيًّا ويزحف بعصبية، واضطررت تحت وطأة الجوع أن ألتهم الدود كله، وحتى اليوم كلما تذكرت ما حدث في هذا المساء شعرت

برغبة في القيء، وقال آخر وهو شاب في الخامسة والسبعين: كنت مصابًا في ساقي وجرحي خطير ومملوء بصديد، وعندما أبلغتهم رفضي للعمل في السجن دس الضابط الياباني سيجارته المشتعلة في جرحي، ولا أعرف كيف نجوت من الموت ولا كيف واصلت الحياة حتى الآن. وقال آخر كان جنديًّا برتبة نفر: لقد كان للقائد الياباني قرد محبوس في قفص، وكانوا يطعمون القرد موزًا وتفاحًا وأعواد القصب، وعندما انحنيت على الأرض ألتقط قشرة الموز التي قذف بها القرد من قفصه، انتزع الجندي الياباني القشرة من يدي ثم التقطها ومسح بها حذاءه ثم سحقها بعد ذلك تحت حذائه في الطين والتراب.

نصائح بلير

وفي المساء اضطر رئيس الوزراء بلير إلى مخاطبة الشعب البريطاني عبر التليفزيون ودعاه إلى نسيان الماضي. لأن ما حدث في الحرب العالمية كان صفحة سوداء ارتكبت فيها كل الجرائم على الجانبين، ولكنها الآن انتهت وانطوت، وعلى الجميع الآن أن يواجهوا الواقع الجديد بالعلاقات بين بريطانيا واليابان في الوقت الحاضر هي علاقة صداقة وتعاون هدفها التنمية الاقتصادية وخلق وظائف جديدة. ولكن المحاربين القدماء لم يقتنعوا بوجهة نظر رئيس الوزراء وقالوا إن ما ارتكبه اليابانيون أثناء الحرب هي جرائم لا تغتفر، وقالت إحدى المجندات: لقد عانيت من ظروف

التعذيب في الأسر ما لا طاقة لبشر في احتماله، اشتغلت مضيفة وخادمة وطباخة وخليلة لطيفة رغم أنفي، ومع ذلك لم أحصل على قرش واحد تعويضًا عما أصابني، لا من الحكومة اليابانية ولا من الحكومة البريطانية. لقد تجاهلني الجميع واعتبروا ما حدث لي هو مجرد مصادفة سيئة.

الاعتذار المناسب

ويقول بعض الخبثاء إن ثورة المحاربين القدماء ليس هدفها الحقيقي هو الرغبة في الانتقام، ولكن الهدف الحقيقي هو الحصول على التعويض. فاليابان هي أغنى دولة الآن على ظهر الأرض، والإنجليز لا مؤاخذة أحوالهم ليست على ما يرام، وهؤلاء الجنود الذين تعرضوا للتعذيب لديهم نياشين على قفا من يشيل، ولكن ليس لديهم فلوس، وهذه الحياة الجديدة بطلها الحقيقي ليس هو صاحب الشجاعة والشهامة، ولكن بطل هذه المرحلة هو الدولار الأمريكي والجنيه الإسترليني والفرنك السويسري والين الياباني. والبطل الحقيقي في النظام العالمي الجديد ليس هو الذي يحمل أوسمة ولكن الذي يحمل دفتر شيكات. أما صاحب الأوسمة والنياشين فهو مجرد أنتيكا من زمن مضى. هل تعرفتم الآن على ملامح النظام العالمي الجديد؟ إنه ببساطة الفرق بين الكابتن آلن شيرر لاعب كرة القدم الذي اشتراه نادي نيوكاسل بعشرين مليون جنيه إسترليني، والمارشال مونتجمري بطل معركة العلمين، الذي

لو عرضوا أوسمته ونياشينه في مزاد لتوقف الثمن عند عشرة آلاف جنيه، فمن يا ترى هو البطل الآن؟ إنه الكابتن شيرر وملايينه العشرون بكل تأكيد، وقلبي مع المحاربين الإنجليز القدماء وأتمنى لهم هبرة كدبرة من جيب الإمبراطور، ليسددوا الفواتير التي انتشرت بشكل وبائي في بريطانيا، وهذا يا سيدي الإمبراطور هو الاعتذار الوحيد المناسب، ولن يقبلوا أي اعتذار سواه!

أهلًا رمضان!

أعرف ناسًا لا يزالون على قيد الحياة اضطروا ذات مساء إلى سلف جلابية جزار كان عالقًا بها بقايا قطع لحم وبقع دم، وعملوا فتة على مرق الجلابية وفطروا وانبسطوا وحمدوا الله. وأعرف نجمًا من نجوم المجتمع مات منذ سنوات كانت أمه ترسله وهو صبي صغير يطوف حول مزارع كلية الزراعة يلتقط لها الديوك الرومي الميتة التي تلقي بها المزرعة خارج الأسوار. وبعض رجال الأعمال المشاهير الآن كانوا حرفيين في أيام الصبا المبكر، وبعضهم كان من رواد قهوة الموظفين بتاعة الفنان صلاح جاهين.

لا فرق الآن

وفي إحدى القنوات الفضائية شاهدت برنامجًا بين مذيعة كركورة من بتوع هذا الزمان وبين رجل مسن تعدى السبعين منذ سنوات وكان الحوار عن شهر رمضان أيام زمان، وخير شهر

رمضان أيام زمان، ومتعة رمضان أيام زمان، ثم الفارق بين رمضان زمان ورمضان هذا الزمان.

حيث أصبح رمضان الجديد يأتي ويروح دون أن يشعر به أو يستمتع بأجوائه التي كان يحس بها أيام زمان، والغريب أن المذيعة الكركورة عامت مع الموج ووافقت على كلام العجوز، وأبدت أسفها لأنها لم تدرك أيام زمان ولم تستمتع بمباهج زمان. هل كان الرجل العجوز يكذب؟ بالتأكيد لا، ولكنه أخطأ التحليل. فرمضان زمان كان أمتع وأحسن ولكن لأسباب أخرى لم يستطع إدراكها الرجل العجوز.. فزمان كانت شوارع المدن مظلمة، فإذا جاء رمضان اشتعلت الشوارع بالنور، نور من بتاع الحكومة ونور قطاع خاص على حساب الناس. ولذلك كان رمضان فرصة عظيمة أمام العيال والصبية الصغار في ممارسة اللعب حتى ساعة متأخرة من الليل. وفي غير رمضان كان راديو القاهرة ينهي إرساله في الحادية عشرة مساء، ولكنه في رمضان كان يواصل إرساله حتى الفجر، وكانت المحلات العامة تغلق أبوابها في منتصف الليل بالضبط، وكان عساكر زمان بتوع الضبط والربط يحرصون على تنفيذ الأوامر، فلا تجد دكانًا مفتوحًا بعد منتصف الليل بثانية أما في رمضان فالسهر مباح والقهاوي منورة وعامرة حتى الصباح، وفي غير رمضان أيام زمان كنا نحرص ونحن في أيام الصبا على الذهاب إلى العتبة الخضرا لكي نتناول طبقًا من الكنافة من محل الحاج صبحي في شارع عبد العزيز، وكان هذا اليوم من أول كل شهر يعتبر عيدًا سعيدًا لنا نحن أطفال ذلك الزمان. زمن الثلاثينيات

والأربعينيات حتى في الخمسينيات. كنا نحن أبناء الموظفين والعمال لا نحلم بأكل اللحمة مرة كل أسبوع وأصحاب الحظ السعيد يأكلونها مرتين كل أسبوع. أما في رمضان فكان اللحم طبقًا رئيسيًّا على مائدة الإفطار كل يوم، لذلك كانت بهجة رمضان أعظم ولذته أكبر، وكان الفرق واضحًا بين رمضان وغيره من الشهور والأيام.

الحفيد والفيديو

أما الآن، فلا يوجد فرق بين رمضان وغير رمضان، الشوارع منورة ليلًا ونهارًا أيضًا، والقهاوي مفتوحة على مدى الأربع والعشرين ساعة بلا انقطاع، الإذاعات المحلية والعربية والدولية لا تكف عن الإرسال، والقنوات التليفزيونية الفضائية العربية والدولية مفتوحة على ودنه، مسلسلات على برامج على أخبار على مباريات، ومحلات الكنافة أكثر من محلات اللب. لم تعد لرمضان مباهج يختص بها وليس لها وجود في غير رمضان. أصبحت كل شهورنا رمضان. ولم نعد نحتاج للذهاب عند شاطئ النيل لنشاهد إطلاق مدفع رمضان، وبعدها نهرول إلى منازلنا لنبشرهم بأن مدفع الإفطار انطلق منذ لحظات لأن كل شارع في القاهرة وفي المدن به عشرة ميكروفونات على الأقل ترفع أذان المغرب وكل أذان. وكنا نضطر ونحن في سن الشباب إلى الذهاب إلى مسجد الحسين ومسجد السيدة زينب نستمع إلى

التلاوة من مشاهير المقرئين في الحفلات الدينية التي كانت تقام خلال الشهر المبارك. أما الآن فتستطيع أن تستمع لمن تشاء من الإذاعات ومن التليفزيونات والكاستات وأسطوانات الليزر ومن خلال أجهزة الفيديو التي يجيد التعامل معها حفيدي أكرم، وأفشل في التعامل معها حتى الآن.

سلم الترماي

تغير الزمان وتغيرت الأيام وتغيرت الأحوال، ولكن بعض الناس تحن إلى أيام زمان، مع أن أيام زمان كانت آخر غم وآخر غُلب وآخر فقر وآخر جفاف. وفي الثلاثينيات من هذا القرن كان جدي الشيخ معوض يأتي إلى القاهرة في مركب شراعي ويحتاج لعدة أيام للوصول إلى القاهرة.

صدقوني إذا قلت لكم أيامكم أفضل وأجمل، وإن الحياة صارت سهلة حتى بالنسبة لأفقر الفقراء، ونصف الشعب المصري على الأقل سافر خارج الحدود، البعض للعمل والبعض لمهمة والبعض للسياحة والبعض للعلاج، وزمان عاش الملايين وماتوا دون أن يغادروا قراهم أو مدنهم، ولم يحلموا يومًا بمغادرتها إلى أي مكان، وأحد أعمامي سافر إلى الخارج عندما اختطفته السلطة للعمل في فلسطين بالسخرة لخدمة المجهود الحربي في الحرب العالمية الأولى وبدون أجر على الإطلاق. وأفراد شلتنا

كانت ظروفهم متشابهة مع أن أولياء أمورنا كانوا يعملون في مهن مختلفة، منهم العمال ومنهم الموظفون ومنهم الضباط. وكنا ونحن طلبة نتحسس جيوبنا قبل أن نفكر في الجلوس على القهوة، وفي أوقات كثيرة كنا نعود إلى بيوتنا بعد مشاهدة السينما شعبطة على سلم الترماي.

مرحبًا بالمستقبل

وأقول لشباب هذه الأيام، ظروفكم أسعد من ظروفنا، وأحوالكم أحسن من أحوالنا، بالرغم من عدم وجود شغل وعدم وجود وظائف. صحيح أن الشقة زمان كانت بثمانين قرشًا ولكن أصحاب البيوت كانوا يطلقون البخور لاجتذاب السكان لأن الثمانين قرشًا لم تكن متوافرة لأي شباب، وكل الذين ترونهم الآن من المشاهير والمنتقدين كتبوا في شبابهم طلبات استخدام لرئيس المصلحة أو رئيس الشركة يطلبون عملًا. وجعلكم الله زخرًا للعاطلين والفقراء، وكنا في شبابنا المبكر نتفادى المرور في بعض الشوارع هربًا من القهوجي وصاحب دكان السجاير.

لا تصدقوا أيها الخلان ما يقال لكم عن رخاء أيام زمان وبلهنية العيش زمان، والوفرة أيام زمان، فلم يكن ينعم بالعيش أيام زمان إلا حفنة من البشوات وحفنة من البكوات وعدد من عمد الريف وأعيان البلاد. ومعهم بالطبع عدد كبير من الخواجات أصحاب

المصانع والمزارع وبعض اليهود أصحاب دكاكين الفضة والذهب الرنان.

أسأل الله أن يُعذِّبهم جميعًا بقدر ما امتصوا من دم شعبنا في سالف الأيام. ومرحبًا بالأجيال الجديدة السعيدة المقبلة!



مسافر بلا متاع

ولأني حمقري (مزيج من الحمار والعبقري) فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلّاس.. ولأني حمقري كنت أرفع شعارًا حمقريًّا «أنا أضحك إذن أنا سعيد»، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تقرقع على لسانه تقرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ضحكة ترتسم على شفتيه تنحدر دمعة داخل قلبه.. ولكن هناك حزن هلفوت، وهناك أيضًا حزن مقدس.. وصاحب الحزن الهلفوت يحمله على رأسه ويدور به على الناس.. التقطيبة على الجبين، والرعشة في أرنبة الأنف، والدمعة على الخدين.. ياالالي! وهو يدور بها على خلق الله يبيع لهم أحزانه، وهو بعد فترة يكون قد باع رصيده من الأحزان وتخفف، ويفارقه الحزن وتبقى آثاره على الوجه، اكسسوارًا يرتديه الحزين الهلفوت ويسترزق..

لكن الحزن المقدس حزن عظيم، والحزن العظيم نتيجة هموم عظيمة، والهموم العظيمة لا تسكن إلا نفوسًا أعظم.. والنفوس الأعظم تغلق نفسها على همها وتمضي.. وهي تظل إلى آخر لحظة في الحياة تأكل الحزن والحزن يأكل منها، ويمضي الإنسان صاحب الحزن العظيم – ككل شيء في الحياة – يأكل ويؤكل، ولكن مثله لا يذاع له سر، وقد يمضي بسره إلى قبره! ولذلك يقال: ما أسهل أن تبكي وما أصعب أن تضحك.

ولكن هناك أيضًا ضحك مقدس، وهناك ضحك هلفوت.. الضاحك إذا كان حزينًا في الأعماق صار عبقريًّا، وإذا كان مجدبًا من الداخل أصبح بلياتشو [illegible] على قفاه! ونحن أكثر الشعوب حظًّا في إنتاج المضحكين.. مصر العظيمة [illegible] كل جيل عشرات من المضحكين، ولقد استطاع بعضهم أن يخلد ولمع [illegible] كبالونة منتفخة بالهواء، بعضهم أصيل وبعضهم فالصو، بعضهم [illegible] وبعضهم مثل الذهب القشرة.



دار الشروق
www.shorouk.com